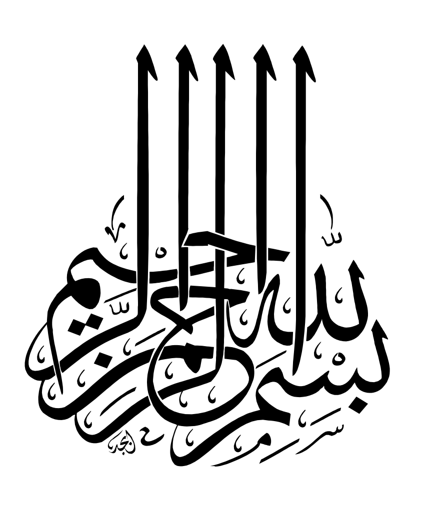
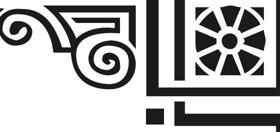
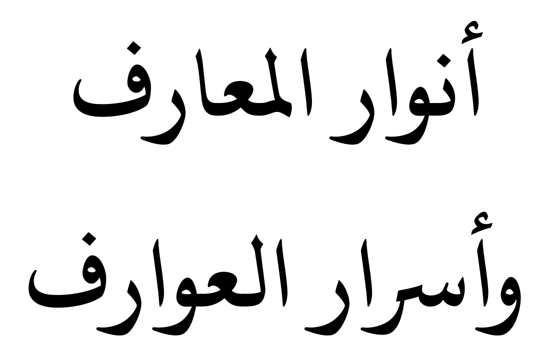

بسم الله الرحمن الرحيم



أنوار المعارف وأسرار العوارف

للشيخ الإمام

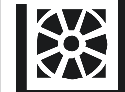
عبد العزيز الديريني

(ت ٦١٢ ـ ٦٩٤ هـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ)

اعتنى به



نزار حمَّادي






بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ الإِنْسَانَ وَجَعَلَ لَهُ عَقْلًا، وَوَفَّقَهُ لِلتَّمْيِيزِ بين الجَائِزِ وَالوَاجِبِ وَالمُسْتَحِيلِ لُطْفاً مِنْهُ وَفَضْلًا، وَالشُّكْرُ لَهُ أَنْ هَدَانَا لِمَعْرِفَةِ عَقَائِدِ الإِيمَانِ وَأَدِلَّتِهَا، وَسَلَكَ بِنَا طَرِيقاً أَشْعَرِيَّةً فِي تَحْصِيلِهَا وَتَحْصِينِهَا.

وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ المَوْصُوفِ بِالصِّدْقِ وَالأَمَانَةِ وَالتَّبْلِيغِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ المُبَرَّئِينَ مِنَ الزَّلَلِ وَالزَّيْغِ.

وَبَعْدُ؛ فَقَدْ تَقَرَّرَ أَنَّ شَرَفَ العِلْمِ يَتْبَعُ شَرَفَ المَعْلُومِ، وَثَبَتَ أَنَّهُ لَا مَعْلُومَ أَشْرَفَ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَأَنْتَجَ ذَلِكَ أَنَّهُ لَا عِلْمَ أَشْرَفَ مِنَ العِلْمِ بِهِ وَلَا مَعْرِفَةَ أَرْقَى مِنْ مَعْرِفَةِ أَحْكَامِ جَلَالِهِ وَإِكْرَامِهِ.

وَالمَعْرِفَةُ بِهِ ـ تَعَالَى ـ المَطْلُوبَةُ مِنَّا شَرْعاً إِنَّمَا هِيَ مَعْرِفَةُ وَصْفِهِ بِجَمِيعِ صِفَاتِ الكَمَالِ، وَتَنْزِيهِهِ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ مِنْ صِفَاتِ النَّقْصِ وَالزَّوَالِ، وَذَلِكَ فِي الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ وَالأَفْعَالِ.

وَقَدْ أَثْبَتَ اللهُ ﷻ أُصُولَ وَفُرُوعَ تِلْكَ المَعَارِفِ بِأَوْجَزِ أُسْلُوبٍ وَأَفْصَحِ بيَانٍ، وَقَرَّرَهَا فِي عَدَدٍ لَا يُحْصَى كَثْرَةً مِنْ آيَاتِ القُرْآنِ، ثُمَّ وَفَّقَ العُلَمَاءَ الرَّبَّانِيِّينَ لاسْتِخْرَاجِ تَفَاصِيلِهَا وَبَسْطِ حُجَجِهَا العَقْلِيَّةِ وَالنَّقْلِيَّةِ بِغَايَةِ الإِتْقَانِ،

فنالُوا بِذَلِكَ شَرَفَ الاندِرَاجِ فِي قَوْلِ اللَّطِيفِ الكَرِيمِ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

وَهَذِهِ المَعَارِفُ الإِلَٰهِيَّةُ ـ بِلَا شَكٍّ ـ هِيَ أَفْضَلُ مَا أُوتِيَهُ الخَلْقُ بِاتِّفَاقٍ، فَلاَ نِعْمَةَ أَعْظَمَ مِنْهَا مِنْ سَائِرِ نِعَمِ اللهِ تَعَالَى بِالإِطْلَاقِ، وَهِيَ إِذَا وَقَعَتْ فِي قَلْبِ الإِنْسَانِ عَلَى وَجْهِهَا الصَّحِيحِ وَصَحِبَهَا القَبُولُ وَالإِذْعَانُ ارْتَقَتْ بِهِ مِنْ دَرَكَاتِ البَهِيمِيَّةِ إِلَى دَرَجَاتِ المَلَكِيَّةِ، وَأَثْمَرَتْ لَهُ خِصَالًا عَلِيَّةً وَأَخْلَاقاً رَفِيعَةً سَنِيَّةً.

وَقَدْ أَشَارَ شَيْخُ الإِسْلَامُ عِزُّ الدِّينِ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ الشَّافِعِيُّ الأَشْعَرِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إِلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: «اعْلَمْ أَنَّ مَعْرِفَةَ الذَّاتِ والصِّفاتِ مُثْمِرَةٌ لِجميعِ الخَيْراتِ العَاجِلةِ وَالآجِلةِ، وَمَعْرِفَةَ كلّ صِفةٍ مِن الصفاتِ تُثمِرُ حَالًا عَلِيَّةً، وَأَقْوالًا سَنِيَّةً، وَأَفْعالًا رَضِيَّةً، وَمرَاتِبَ دُنْيَوية، ودرَجاتٍ أخروِيَّة؛ فمَثَلُ معرفةِ الذَّاتِ والصفاتِ ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا﴾ وهوُ مَعْرِفَةُ الذَّاتِ ﴿ثَابِتٌ﴾ بالحُجَّةِ وَالبُرْهانِ، ﴿وَفَرْعُهَا﴾ وَهُوَ معْرِفَةُ الصِّفاتِ ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ مَجْداً وشَرَفاً، ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ مِنَ الأَحْوَالِ وَالأَقْوالِ وَالأَعْمالِ ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾(١) وهُوَ خالِقُهَا؛ إِذْ لَا يَحْصُلُ شَيْءٌ مِنْ ثِمارِهَا إِلَّا بِإِذْنِه وتَوْفِيقِهِ.

مَنْبَتُ هَذِه الشَّجرَة: القَلْبُ الَّذِي إِذَا صَلُحَ بِالمَعْرِفَةِ والأَحوالِ صَلُحَ الجَسَدُ كُلُّهُ فِي الحَالِ بِالأَقوالِ وَالأَعْمالِ، وَفِي المآلِ بِنَعِيم الجِنَانِ وَرِضْوَانِ

(١) سورة إبراهيم: الآية ٢٤، ٢٥.

ذِي الجَلَالِ؛ وَإِذَا فَسدَ بِالغَيِّ وَالضَّلالِ فَسدَ الجَسدُ كُلُّه فِي العاجِل بِالـمَعاصِي وَالإِهْمالِ، وَفِي الآجِلِ بِعَذَابِ النَّارِ وغضَبِ الجَبَّارِ.

مَنْ فقَد فَرْعاً مِن فُروعِ هذه الشَّجرَةِ فَقَدَ ثَمرَاته فِي الحَالِ والـمَآلِ، فَطُوبَى لِـمَنْ غَرسَ هَذِه الشَّجرَةَ بالنَّظرِ[(١)]، وَتعهَّدهَا بِالتَّقْوَى، وحَرَسَها بِالاسْتِقامَةِ، ونَفَى عَنْهَا شعَثَ الـمُخالَفَةِ، وصانَها مِن رياح الهوى، وخافَ عَلَيْها مِنْ صَوَاعِقِ الشَّكِّ وَبَوَائِقِ الشِّرْكِ وَجَوَائِحِ سُوءِ الخَاتِـمَةِ؛ ﴿**فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ**﴾ [الأعراف: ٩٩][(٢)].

وبين يديك عزيزي القارئ هذه الرسالة اللطيفة المختصرة المصنفة في علم معرفة الله تعالى ومعرفة السلوك في طريق مرضاته، وهي رسالة «**أَنْوَار الـمَعَارِفِ وَأَسْرَار العَوَارِفِ**» للشيخ الإمام المفسر الأديب الفقيه العابد والورع الزاهد: عز الدين عبد العزيز بن أحمد الدميري الأصل، الشافعي مذهباً، السنيُّ الأشعريُّ معتقداً، المعروف بالديريني (٦١٢ ـ ٦٩٤هـ)[(٣)].

---

(١) يعني به التأمل والتفكر في آيات الله تعالى الموصلة إلى معرفته ﷻ، كما قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس: ١٠١].

(٢) شجرة الأحوال، (ص٦٤) طبعة دار الفكر، سوريا.

(٣) تراجع ترجمته المفصلة في الطبقات الكبرى للتاج السبكي (ج٨ ص ١٩٩ تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، ومحمود محمد الطناحي، دار إحياء الكتب العربية)؛ والدليل الشافي على المنهل الصافي لابن تغري (ج١/ص٤١٤ ترجمة رقم ١٤٢٥ تحقيق فهيم محمد شلتوت، ط٢، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٩٨م)، طبقات المفسرين للداودي ج١/ص٣٠٥، ٣٠٦ ترجمة رقم ٢٨٥، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة وهبة) طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة (ج٢/ص ٢٣٣ ترجمة رقم ٤٧٢ بعناية د. الحافظ عبد الحليم خان، ط١، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩م).

ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في صدر هذه الرسالة مقدمة عقدية محكَمة على مذهب أهل السنة الأشاعرة، بين فيها إجمالا ما يجب اعتقادُه في حق الله تعالى من صفات الكمال، وما يستحيل أن يتصف به تعالى من صفات النقص، وما يجوز له عَزَّوَجَلَّ فِعله، وذيلها ببعض مباحث النبوات فبيّن ما يجب اعتقادُه في حق نبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووجوب تصديقه في جميع ما أتى به من السمعيات.

وبعد ذلك شرع في ذكر ثمرات هذه المعرفة الصحيحة، وعقد لها بابا سماه «بَاب بَيَانِ سُلُوكِ الطَّرِيقِ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ»، ورتبه على ثلاث مراتب، وفي كل مرتبة مقامات وأحوال، ومثَّل لذلك بمسافر يسلك الطريق قاصداً الحج، فبيّن ما ينبغي له إعداده واعتباره ليصل إلى مقصده ويؤدي نُسُكه.

فالـمَرْتَبَةُ الأُولَى: التَّأَهُّبُ لِلسَّفرِ، ذكر فيها مقامات منها: اليَقَظَة، والتَّوْبَة، الـمُحَاسَبَة، الرِّيَاضَة، الحُزْن، الخَوْف، التَّقْوَى، وَالزُّهْد، وَالوَرَعُ، وعرَّف كُلًّا منها وذكر دليلَهُ من الكتاب والسنة.

والـمَرْتَبَةُ الثَّانِيَة: الغُرْبَةُ، ذكر من المَقَامَات فيها الإِرَادَة، والفِرَار إِلَى اللهِ تَعَالَى، والتَّوَكُّل، والصَّبْر عَلَى أَحْكَامه عَزَّوَجَلَّ، والشُّكْر.

وختم بالمرتبة الثالثة وهي الوصول إلى المشاهدة، فذكر مقاماتها وأحوالها، وحقيقة هذه المرتبة هو الإحسان الذي فسَّره النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث بقوله: «أن تَعْبُدَ اللهَ كأَنَّكَ تَرَاهُ»(١).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، سورة البقرة ـ باب قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤].

وبالجملة فتعتبر هذه الرسالة دليلا علميا عمليا في كيفية التقرُّب إلى الله تعالى، بدءاً بتصحيح الاعتقاد، ومروراً إخلاص القصد إليه ﷻ في الأقوال والأفعال، ووصولا إلى ثمرات ذلك في الدنيا والآخرة، والمؤلف في جميع ذلك كما أشرنا يستدل بآيات القرآن الكريم وحديث سيِّدِ المرسلين، وكيف لا وقد كان إماماً في علم التفسير، وله فيه المنظومة الشهيرة المسماة بـ«التيسير في علم التفسير»، وله أيضا التفسير المسمى بـ«المصباح المنير في علم التفسير»، وفي علم السلوك وبيان أعمال القلوب له كتاب جليل سماه «طهارة القلوب في ذكر علام الغيوب»، ومِن نفيس كلامه فيه:

«إلهي عرَّفتنا بربوبيَّتِك، وغرَّقتَنا في بحار نِعمتك، ودعوتنا إلى دار قُدْسِك، ونعَّمتنا بذكرك وأُنسِك.

إلهي إنّ ظُلْمَةَ ظُلْمِنا لأنفُسِنا قد عمَّت، وبحارَ الغفلة على قلوبنا قد طمَّت، فالعجزُ شامل والحَصْرُ حاصِلٌ، والتسليمُ أسلَمُ، وأنت بالحالِ أعلَمُ.

إلهي ما عصيناك جهلًا بعقابِك، ولا تعرُّضاً لعذابك، ولكن سوَّلت لنا نفوسُنا وأعانتنا شِقْوَتُنا وغرَّنا سترك علينا، وأطمعنا في عفوك برُّك بنا، فالآن من عذابك من يستنقذنا، وبحبل مَن نعتصم إن قَطعتَ حبلكَ عنا، وَاخَجْلتنا من الوقوف غداً بين يديك، وافضيحتنا إذا عُرِضت أعمالنا القبيحة عليك.

اللهم اغفر ما عَلِمْتَ ولا تَهْتِك ما ستَرْتَ، إلهي إن كنا عصيناك بجَهْلٍ فقد دعوناكَ بعَقْلٍ حيث عَلِمْنَا أنّ لنا ربّا يغفر الذنوبَ ولا يبالي».

هذا، وقد اعتنيتُ بهذه الرسالة من خلال النسخة المخطوطة الوحيدة التي عثرت عليها بعد طول بحث، وهي موجودة بالمكتبة الوطنية بتونس،

ضمن المجموع رقم ١٥٨٣، وهي قطعته الثالثة، خطها مغربي، وتقع في ٢٥ صفحة، من وجه الورقة ٤٤ إلى ظهر الورقة ٥٦، أما نسبة «أنوار المعارف وأسرار العوارف» للشيخ عبد العزيز الديريني فقد أثبتها ابن قاضي شهبة في طبقات الشافعية، وأيضا الداودي في طبقات المفسرين، والله الموفق إلى الانتفاع بمضامينها والعمل بما فيها.

الصفحة الأولى من المخطوط

الصفحة الأخيرة من المخطوط



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَسَلَّمَ

الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي طَهَّرَ قُلُوبَ أَوْلِيَائِهِ، وَنَوَّرَ أَسْرَارَ أَصْفِيَائِهِ، وَخَصَّهُمْ بِمَحَبَّتِهِ وَوَلَائِهِ، وَعَمَّهُمْ بِمَوَاهِبِهِ وَآلَائِهِ.

أَحْمَدُهُ عَلَى جَزِيلِ نَعْمَائِهِ، وَأُثْنِي عَلَيْهِ مُعْتَرِفاً بِالعَجْزِ عَنْ إِحْصَاءِ ثَنَائِهِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ خَاتَمُ رُسُلِهِ وَأَنْبِيَائِهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَحْبَابِهِ.

أَحَقُّ مَا يُبْتَدَئُ بِهِ فِي التَّعْلِيمِ، وَأَوْلَى العُلُومِ بِالتَّقْدِيمِ: مَعْرِفَةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَالطَّرِيقُ إِلَى مَعْرِفَتِهِ: النَّظَرُ فِي بَدَائِعِ صُنْعِهِ(١).

وَأَقْرَبُ المَصْنُوعَاتِ إِلَيْكَ: نَفْسُكَ، فَتَأَمَّلْ مَا فِي ظَاهِرِهَا مِنْ حُسْنِ التَّرْكِيبِ، وَمَا خُصَّتْ بِهِ مِنَ التَّقْوِيمِ العَجِيبِ، وَمَا فِي بَاطِنِهَا مِنَ الخَوَاطِرِ

---

(١) وإليه تشير آيات لا تحصى كثرة في القرآن العظيم، ومنها قوله تعالى: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]، فقد أرشدنا إلى النظر في السماوات والأرض لمعرفة كونها وما ماثلها مفطورةً أي محدَثةً بعد العدم، وكل محدَث فهو مفتقِرٌ قطعاً إلى محدِثٍ، ومن أدرك ذلك زال عنه كل شك في وجود الله وأيقن أنه سبحانه الغني المطلق المستحق وحده لأن يُعبَد.

الوَارِدَةِ وَالصَّادِرَةِ، وَالأَفْكَارِ الـمُتَوَالِيَةِ الـمُتَوَاتِرَةِ، وَمَا يَرِدُ عَلَيْكَ مِنْ سُرُورٍ وَابْتِهَاجٍ، وَحُبٍّ وَشَوْقٍ وَانْزِعَاجٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

ثُمَّ انْظُرْ مَا فِي العَالَـمِ مِنْ تَقَلُّبٍ وَتَصْرِيفٍ، وَكَثِيفٍ وَلَطِيفٍ، وحَرَكَةٍ وَسُكُونٍ، وَظُهُورٍ وَكُمُونٍ، وَضِيَاءٍ وَظُلْمَةٍ، وَبِشَارَةٍ وَغُمَّةٍ، وَلَيْلٍ وَنَهَارٍ، وَإِقْبَالٍ وَإِدْبَارٍ، وَدُوَلٍ تَتَبَدَّلُ، وَأَحْوَالٍ تَتَحَوَّلُ.

فَتَعْلَمُ بِذَلِكَ أَنَّ العَالَـمَ كُلَّهُ حَادِثٌ، وَأَنَّ لَهُ صَانِعاً أَوْجَدَهُ وَصَوَّرَهُ، ثُمَّ صَرَّفَهُ وَدَبَّرَهُ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠ ـ ٢١].

فصل

الأَحْكَامُ العَقْلِيَّةُ ثَلَاثَةٌ: وَاجِبٌ، وَجَائِزٌ، وَمُسْتَحِيلٌ.

فَالوَاجِبُ: هُوَ الَّذِي لَا يُتَصَوَّرُ عَدَمُهُ، فَإِنَّ الصُّنْعَةَ تَدُلُّ عَلَى صَانِعٍ يَجِبُ وُجُودُهُ وَقِدَمُهُ وَبَقَاؤُهُ، فَيَسْتَحِيلُ عَدَمُهُ.

وَالجَائِزُ: هُوَ الَّذِي يُتَصَوَّرُ وُجُودُهُ وَعَدَمُهُ، كَسَائِرِ الـمَخْلُوقَاتِ، فَإِنَّهُ يُتَصَوَّرُ وُجُودُهَا وَيُتَصَوَّرُ عَدَمُهَا.

وَالمُسْتَحِيلُ: هُوَ الَّذِي لَا يُتَصَوَّرُ وُجُودُهُ، كَاجْتِمَاعِ الضِّدَّيْنِ، فَإِنَّهُ يَسْتَحِيلُ أَنْ يُوصَفَ الشَّيْءُ الوَاحِدُ بِالوُجُودِ مُتَحَرِّكاً وَسَاكِناً فِي زَمَنٍ وَاحِدٍ، أَوْ يُوصَفُ بِأَنَّهُ حَيٌّ مَيِّتٌ فِي زَمَنٍ وَاحِدٍ.

وَالعِلْمُ بِاللهِ تَعَالَى: هُوَ مَعْرِفَةُ مَا يَجِبُ لَهُ، وَمَا يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ، وَمَا يَجُوزُ فِي حَقِّهِ، فَيَجِبُ لِلَّهِ تَعَالَى القِدَمُ، وَالبَقَاءُ، وَالصَّمَدِيَّةُ، وَالوَحْدَانِيَّةُ.

فصل

وَمَعْنَى القِدَمِ أَنَّهُ ـ سُبْحَانَهُ ـ لَا بِدَايَةَ لِوُجُودِهِ، وَمَعْنَى البَقَاءِ أَنَّهُ لَا نِهَايَةَ لِبَقَائِهِ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ**﴾ [الحديد: ٣]، أَوَّلٌ بِغَيْرِ بِدَايَةٍ، وَآخِرٌ بِغَيْرِ نِهَايَةٍ.

وَمَعْنَى الظَّاهِرِ أَنَّهُ مَعْرُوفٌ بِدَلَالَةِ صُنْعَتِهِ، مَعْلُومٌ وُجُودُهُ بِمَا أَظْهَرَ مِنْ بَدَائِعِ حِكْمَتِهِ.

وَمَعْنَى البَاطِنِ أَنَّهُ لَا يَصِلُ العَقْلُ إِلَى تَكْيِيفِهِ، وَلَا يَرْقَى الوَهْمُ إِلَى تَصْوِيرِهِ، وَلَا يَطْمَعُ الفَهْمُ فِي تَقْدِيرِهِ، وَكَيْفَ يُطِيقُ العَقْلُ الحَادِثُ إِحْصَاءَ صِفَاتِ القَدِيمِ؟!

وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**»(١)، وَقَوْلِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «سُبْحَانَ مَنْ لَمْ يَجْعَلْ لِخَلْقِهِ سَبِيلًا إِلَى مَعْرِفَتِهِ إِلَّا بِالعَجْزِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ». وَقَدْ وَرَدَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**تَفَكَّرُوا فِي آلَاءِ اللهِ وَلَا تَتَفَكَّرُوا فِي اللهِ تَعَالَى؛ فَإِنَّكُمْ لَنْ تَقْدِرُوا قَدْرَهُ**»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، والبيهقي في شعب الإيمان.



فصل

وَمَعْنَى الصَّمَدِيَّةِ أَنَّهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ـ لَيْسَ بِجِسْمٍ وَلَا تُشْبِهُهُ الأَجْسَامُ. وَلَا يَتَبَيَّنُ هَذَا إِلَّا بِمَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ الجَوْهَرِ وَالجِسْمِ وَالعَرَضِ.

فَحَقِيقَةُ الجَوْهَرِ: الجُزْءُ الَّذِي لَا يَتَجَزَّأُ، وَمِثَالُهُ أَنَّكَ إِذَا أَخَذْتَ شَيْئاً مِنَ الأَشْيَاءِ فَقَسَّمْتَهُ أَجْزَاءً ثُمَّ قَسَّمْتَ كُلَّ جُزْءٍ أَجْزَاءً، فَمَا كَانَ مَعَكَ مِمَّا يُمْكِنُ قِسْمَتُهُ فَهُوَ جِسْمٌ اجْتَمَعَ مِنْ جَوَاهِرَ مُتَعَدِّدَةٍ، وَإِذَا بَقِيَ شَيْءٌ مِنْهُ لَا يُمْكِنُ قِسْمَتُهُ فَهُوَ الجَوْهَرُ، فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ بِهَذَا حَقِيقَةُ الجَوْهَرِ وَالجِسْمِ.

وَأَمَّا العَرَضُ فَإِنَّهُ الـمَعْنَى الَّذِي يُوصَفُ الجِسْمُ بِهِ، كَالحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ وَالاجْتِمَاعِ وَالافْتِرَاقِ وَالحَرَارَةِ وَالبُرُودَةِ وَالرُّطُوبَةِ وَاليُبُوسَةِ وَالأَلْوَانِ كُلِّهَا مِنَ البَيَاضِ وَالسَّوَادِ وَالحُمْرَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَالعُلُومِ وَالإِرَادَاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ.

فَالأَعْرَاضُ صِفَاتُ الجَوَاهِرِ، وَلَا يُتَصَوَّرُ وُجُودُ جَوْهَرٍ بِلَا عَرَضٍ، كَقَوْلِ القَائِلِ: هَذَا شَخْصٌ لَيْسَ لَهُ لَوْنٌ وَلَا هُوَ مُتَحَرِّكٌ وَلَا سَاكِنٌ.

وَلَا يُتَصَوَّرُ وُجُودُ عَرَضٍ قَائِمٍ بِنَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ جَوْهَرٍ، كَقَوْلِ القَائِلِ: هَذِهِ حَرَكَةٌ بِغَيْرِ مُتَحَرِّكٍ، أَوْ لَوْنٌ مُنْفَصِلٌ مِنْ غَيْرِ جِسْمٍ، بَلِ الجَوَاهِرُ لَا تَخْلُو عَنِ الأَعْرَاضِ، وَالأَعْرَاضُ لَا تَسْتَقِلُّ بِالوُجُودِ دُونَ الجَوَاهِرِ.

وَالأَعْرَاضُ قَدْ عَلِمْنَا حُدُوثَهَا بِتَغَيُّرِهَا وَزَوَالِـهَا، فَتَزُولُ الحَرَكَةُ وَيَخْلُفُهَا السُّكُونُ، وَيَزُولُ السُّكُونُ وَتَخْلُفُهُ الحَرَكَةُ، وَكَذَلِكَ تَبَدُّلُ الأَلْوَانِ وَتَغَيُّرُ الأَكْوَانِ



بَيْنَ اجْتِمَاعٍ وَافْتِرَاقٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

فَيَلْزَمُ مِنْ حُدُوثِ الأَعْرَاضِ حُدُوثُ الجَوَاهِرِ الَّتِي لَا تَنْفَكُّ عَنْهَا، فَإِنَّ كُلَّ مَا يُوصَفُ بِالحَوَادِثِ فَهُوَ حَادِثٌ[1].

فَيَجِبُ كَوْنُ الصَّانِعِ ـ سُبْحَانَهُ ـ مَوْجُوداً لَا يُشْبِهُ المَوْجُودَاتِ، وَكُلُّ مَا سِوَى اللهِ تَعَالَى فَهُوَ جَوَاهِرُ وَأَعْرَاضٌ، وَاللهُ تَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنْ كُلِّ شَبِيهٍ وَنَظِيرٍ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١][2].

(١) وهذه القاعدة العقلية قد اتفق عليها جميع أهل السنة والجماعة، ولذلك استحال أن يكون الله تعالى محلا للصفات الحادثة، فإن كل متصف بالصفات الحادثة فلا شك أنه حادث، والله تعالى منزه عن الحدوث بعد العدم، قال الإمام ابن جرير الطبري: «مَا لَمْ يَخْلُ مِنَ الحَدَثِ لَا شَكَّ أَنَّهُ مُحدَثٌ. التاريخ (ج١/ص٢٨) وقال الشيخ ابن بطة العكبري: كُلُّ مَنْ حَدَثَتْ صِفاتُه فمُحْدَثٌ ذاتُهُ، ومَنْ حدث ذاتُه وصِفتُه فإلى فناء حياتُه، وتعالى الله عن ذلك عُلوّاً كبيراً. (الإبانة، ج٢/ص١٨٣)

(٢) وهذه الطريقة العقلية في معرفة الله تعالى هي طريقة شرعية من حيث إن القرآن العظيم أرشد إليها في آيات كثيرة، قال شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام في تفسيره: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ﴾ [آل عمران: ١٩٠] قَائِمَاتٍ لِمَنْ خَلُصَ عَقْلُهُ عَنِ الهَوَى خُلُوصَ اللُّبِّ عَنِ القُشرِ، فَيَرَى أَنَّ العرَضَ المُحْدَثَ في الجَوَاهِرِ يَدُلُّ عَلَى حُدُوثِ الجَوَاهِرِ؛ لِأَنَّ جَوْهَراً لَا يَنفَكُّ عَنْ عَرَضٍ، ثمَّ حُدُوثُهَا يَدُلُّ عَلَى مُحْدِثِهَا، وَإِحْدَاثُهُ يَدُلُّ عَلَى قِدَمِهِ؛ وَإِلَّا لَاحْتَاجَ إِلَى مُحْدِثٍ آخَرَ فَلَا يَتَنَاهَى، وَحُسْنُ صُنْعِهِ يَدُلُّ عَلَى عِلْمِهِ، وإِتْقَانُهُ يَدُلُّ عَلَى حِكْمَتِهِ، وَبَقَاؤُهُ يَدُلُّ عَلَى قُدْرَتِهِ، ثُمَّ العَقْلُ يَشْهَدُ بِأَنَّ الصَّانِعَ لَا يُشَابِهُ صُنْعَهُ فِي ذَاتِهِ وَلَا يُمَاثِلُهُ فِي صِفَاتِهِ. (تفسير القرآن، ص ٤٦٢)

فصل

وَمَا وَرَدَ مِنَ الآيَاتِ وَالأَخْبَارِ الَّتِي ظَاهِرُهَا مُتَشَابِهٌ، كَالوَجْهِ، وَاليَدَيْنِ، وَالاسْتِوَاءِ، وَالنُّزُولِ، وَجَبَ الإِيمَانُ بِهِ وَكَفُّ الفِكْرِ عَنِ الجَوَلَانِ فِيهِ بِتَصْوِيرٍ وَتَقْدِيرٍ، وَإِمْسَاكُ عنَانِ الوَهْمِ عَنِ التَّكْيِيفِ، وَالعِلْمُ بِأَنَّ الـمُرَادَ بِالوَجْهِ وَاليَدَيْنِ وَالاسْتِوَاءِ وَالنُّزُولِ مَعَانِيَ تَلِيقُ بِجَلَالِ اللهِ تَعَالَى، لَا تُشْبِهُ صِفَاتِ الخَلْقِ، هَذَا مَذْهَبُ السَّلَفِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وَقَدْ سُئِلَ مَالِكٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ الاسْتِوَاءِ فَقَالَ: «الاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ، وَالكَيْفُ فِيهِ مَجْهُولٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ، وَأَرَاكَ رَجُلًا ضَالًّا»(١).

وَسُئِلَ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ حَدِيثِ النُّزُولِ فَقَالَ: «آمَنْتُ بِاللهِ وَمَا جَاءَ عَنِ اللهِ عَلَى مُرَادِ اللهِ، وَآمَنْتُ بِرَسُولِ اللهِ وَمَا جَاءَ عَنْ رَسُولِ اللهِ عَلَى مُرَادِ رَسُولِ اللهِ».

---

(١) مذهب السلف الصالح والإمام مالك في هذه الآية بيّنه الإمام القرطبي بقوله: ومما يعلم استحالته: كون العرش حاملا لله تعالى، وأن الله تعالى مستقرٌّ عليه كاستقرار الأجسام؛ إذ لو كان محمولا لكان محتاجاً فقيراً لـما يحمله، وذلك ينافي وصف الإلَهية؛ إذ أخص أوصاف الإله الاستغناء المطلق، ولو كان ذلك للزم كونه جسما مقدَّراً، ويلزم كونه حادثاً على ما سبق.

فإنْ قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]؟ قيل: له محامل واضحة، وتأويلات صحيحة، غير أن الشرع لم يعين لنا محملا من تلك المحامل، فيُتوَقَّفُ في التعيين، ويُسلَك مسلكُ السلف الصالح في التسليم. (المفهم في شرح صحيح مسلم، ج٦/ص٦٧٠، دار ابن كثير، ط١، ١٤١٧هـ)

وَسُئِلَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عَنْ آيَاتِ الصِّفَاتِ فَقَالَ: «أَقُولُ فِيهَا مُرَادَ القَائِلِ»[١].

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «السُّنِّيُّ: مَنْ لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي اللهِ بِشَيْءٍ» يَعْنِي بِرَأْيِهِ.

وَمِنَ المَعْلُومِ مِنْ كَلَامِ العَرَبِ أَنَّ الوَجْهَ يُرَادُ بِهِ الوُجُودُ، وَأَنَّ اليَدَيْنِ يُرَادُ بِهَا القُدْرَةُ، وَأَنَّ الاسْتِوَاءَ يُرَادُ بِهِ القَهْرُ وَعُلُوُّ القَدْرِ، وَأَنَّ النُّزُولَ يُرَادُ بِهِ الرِّفْقُ وَاللُّطْفُ وَنُزُولُ الأَمْرِ، فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الأَلْفَاظُ لَهَا مَعَانٍ أُخَر غَيْرَ مَا يُطْلَقُ فِي حَقِّ الخَلْقِ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى الحُدُوثِ ـ فَإِنَّ تَغَيُّرَ أَوْصَافِ الخَلْقِ دَلِيلٌ عَلَى الحُدُوثِ، وَالحُدُوثُ مَعْنَاهُ بِدَايَةُ الوُجُودِ، وَالعَدَمُ نِهَايَةُ الوُجُودِ، وَالحَقُّ سُبْحَانَهُ لَا بِدَايَةَ لِوُجُودِهِ وَلَا نِهَايَةَ ـ فَيَسْتَحِيلُ أَنْ يُوصَفَ بِمَا يَدُلُّ عَلَى الحُدُوثِ وَالعَدَمِ.

---

(١) وهذا دليل على أن الإمام أحمد كان مفوضاً لله تعالى تعيين المعاني المرادة من الآيات المشكلة بعد القطع باستحالة المعاني الباطلة في حقه، وهذا ما أكده ابن قدامة المقدسي بقوله: قالَ الإمامُ أبو عبدِ اللهِ أحمدُ بنُ محمدٍ بنِ حنبلٍ ’ في قولِ النَّبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ «إنَّ اللهَ ينزِلُ إلى سماءِ الدُّنْيَا» و«إنَّ الله يُرى في القيامَةِ» وما أشبه هذه الأحاديثَ، قال: «نؤمِنُ بها ونُصَدِّقُ بها، **لا كَيْفَ، ولا مَعْنَى، ولا نَرُدُّ شيئا منْها**». (لمعة الاعتقاد، ص٦). وقال قبل ذلك: **وما أشكل من ذلك وجب إثباتُه لفظًا، وتركُ التعرّض لمعناه**. (ص ٥)، فقوله: «لا كيف» إشارة إلى تنزيه الله عن معانيها المستحيلة في حقه مما فيه تجسيم أو تشبيه، وقوله «ولا معنى» أي لا نعيّن المعنى المراد مع المعاني الصحيحة لعدم وجود دليل قطعي على التعيين، وقوله: «ولا نرد شيئا منها» أي: نعلم قطعا ويقينا أن لها معاني صحيحة الله أعلم بها تفصيلا فلا نردها لعدم علمنا بالتعيين.



فَالتَّوْحِيدُ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَيْسَ بِمُشَابِهٍ لِلذَّوَاتِ وَلَا مَنْفِيَّ الصِّفَاتِ، وَهَذَا مَعْنَى اسْمِ اللهِ تَعَالَى «القُدُّوسُ السَّلَامُ»، وَمَعْنَاهُ: الـمُنَزَّهُ عَنْ صِفَاتِ النَّقْصِ وَالزَّوَالِ، وَهُوَ الكَبِيرُ الـمُتَعَالِ.

فصل

وَمَعْنَى الوَحْدَانِيَّةِ أَنَّ اللهَ ـ سُبْحَانَهُ ـ وَاحِدٌ فَرْدٌ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ، فَلَا شَبِيهَ لَهُ وَلَا نَظِيرَ، وَاحِدٌ أَحَدٌ وِتْرٌ، فَلَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا وَزِيرَ.

وَقَدْ دَلَّتْ الصُّنْعَةُ عَلَى صَانِعٍ قَادِرٍ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَكُلُّ مَا سِوَاهُ فَهُوَ صُنْعُهُ وَفِعْلُهُ، فَمَنِ ادَّعَى إِلَهاً آخَرَ لَـمْ يَجِدْ لَهُ عَلَيهِ دَلِيلًا، وَلَـمْ يُتَصَوَّرْ لَهُ إِثْبَاتُهُ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، وَقَوْلِه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦].

وَمِنْ أَدِلَّةِ التَّوْحِيدِ أَنَّهُ لَوْ كَانَ مَعَهُ إِلَهٌ آخَرَ لَـحَصَلَ التَّنَازُعُ وَالتَّمَانُعُ، وَيَلْزَمُ مِنْهُ العَجْزُ وَالخَلَلُ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]. وَوَرَدَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**كَانَ اللهُ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ، ثُمَّ خَلَقَ الخَلْقَ**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب التوحيد، باب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧] **بلفظ**: «كان الله ولم يكن شيء قبله»؛ وأيضا في كتاب بدء الخلق، باب=



فصل

ذَهَبَتْ النَّصَارَى إِلَى أَنَّ الـمَسِيحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَلَّتْ فِيهِ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ الرَّبِّ فَصَارَ إِلَٰهاً، وَيُسَمُّونَ جَسَدَ عِيسَى «النَّاسُوتَ»، وَيُسَمُّونَ الصِّفَةَ الَّتِي زَعَمُوا أَنَّهَا حَلَّتْ فِيهِ «اللَّاهُوتَ»، وَيُسَمُّونَهَا الكَلِمَةَ، وَيُسَمُّونَهَا الابْنَ، ثُمَّ زَعَمُوا أَنَّهُ صُلِبَ.

وَهَذِهِ جَهَالَاتٌ عَظِيمَةٌ وَافْتِرَاءَاتٌ عَلَى اللهِ تَعَالَى، وَلَا يَشُكُّ عَاقِلٌ أَنَّ النَّاسُوتَ حَادِثٌ وُجِدَ بَعْدَ أَنْ لَـمْ يَكُنْ، فَكَيْفَ تَحْصُلُ صِفَةٌ قَدِيمَةٌ فِي جَسَدٍ حَادِثٍ؟! أَوْ كَيْفَ تَنْتَقِلُ الصِّفَاتُ مِنْ ذَاتٍ إِلَى ذَاتٍ؟! وَعَلَى قَوْلِـهِمْ أَنَّهُ صُلِبَ يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ سُلِبَ وَزَالَ عَنْهُ مَا كَانَ بِهِ إِلَٰهاً عَلَى زَعْمِهِمْ.

وَمِنْ عَظِيمِ افْتِرَائِهِمْ قَوْلُـهُمْ: إِنَّ الكَلِمَةَ حَلَّتْ فِي عِيسَى وَمَا فَارَقَتِ الرَّبَّ، وَمَثَّلُوهُ بِنُورِ الشَّمْسِ عَلَى الجُدرَانِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الـهَذَيَانِ.

وَالحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ عِيسَى رَسُولٌ مِنْ رُسُلِ اللهِ، أَيَّدَهُ اللهُ بِالـمُعْجِزَاتِ، فَتَغَالَتْ فِيهِ النَّصَارَى وَعَبَدُوهُ، وَكَذَّبَهُ اليَهُودُ وَجَحَدُوهُ، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧].

وَأَمَّا تَسْمِيَةُ عِيسَى «رُوحُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ» بِقَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]

= ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] بلفظ: «كان الله ولم يكن شيء غيره».

فَمَعْنَاهُ أَنَّهُ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ تَعَالَى مِنْ غَيْرِ أَبٍ، وَقَالَ لَهُ كُنْ فكَانَ، فَالكَلِمَةُ قَوْلُهُ «كُنْ» وَمَا أَلْقَاهُ عَلَى لِسَانِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الـمُخَاطَبَةِ وَالبِشَارَةِ، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩]، وَقَوْلُهُ: ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ [مريم: ٩]، فَهَذَا هُوَ الكَلَامُ الَّذِي أَلْقَاهُ اللهُ تَعَالَى مَعَ جِبْرِيلَ إِلَى مَرْيَمَ عِنْدَ حَمْلِهَا، فَسَمَّاهُ كَلِمَةً.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١] يَعْنِي الرُّوحَ الَّذِي خُلِقَتْ لِعِيسَى عِنْدَ خَلْقِ الأَرْوَاحِ أَرْسَلَهَا مَعَ جِبْرِيلَ فَنَفَخَهَا فِي جَنْبِ مَرْيَمَ فَدَخَلَتْ إِلَى جَوْفِهَا، وَصَوَّرَ اللهُ الجَسَدَ فِي بَطْنِهَا، وَجَعَلَ ذَلِكَ الرُّوحَ فِي ذَلِكَ الجَسَدِ بِقُدْرَتِهِ، فَوَلَدَتْهُ بَشَراً سَوِيّاً مِنْ غَيْرِ أَبٍ، وَلَـمْ يَنْتَقِلْ مِنْ طَوْرٍ إِلَى طَوْرٍ كَمَا يَنْتَقِلُ غَيْرُهُ مِنْ نُطْفَةٍ إِلَى عَلَقَةٍ إِلَى مُضْغَةٍ، وَإِنَّمَا أَلْقَى إِلَيْهَا الرُّوحَ وَخَلَقَ الجَسَدَ فِي بَطْنِهَا عِنْدَ حُصُولِ الرُّوحِ فِي جَوْفِهَا، فَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

وَهَذَا الَّذِي ذَكَرْتُهُ هُوَ الـمَشْهُورُ مِنَ التَّفْسِيرِ، وَقِيلَ: سَمَّاهُ كَلِمَةً لِأَنَّهُ رَسُولٌ، كَمَا يُقَالُ: هَذَا لِسَانُ فُلَانٍ وَكَلِمَتُهُ، أَيْ: رَسُولُهُ. وَسَمَّاهُ رُوحاً لِـمَا أَيَّدَهُ بِهِ مِنَ الـمَعَارِفِ وَحَصَلَ بِهِ مِنَ النَّفْعِ.

وَالرُّوحُ فِي القُرْآنِ لَهُ مَعَانِيَ كَثِيرَة:

فَالرُّوحُ: الإِيمَانُ وَالتَّوْفِيقُ؛ قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وَالرُّوحُ: القُرْآنُ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

وَالرُّوحُ: الوَحْيُ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥].

وَالرُّوحُ: عِيسَى؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

وَالرُّوحُ: جِبْرِيلُ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣].

وَالرُّوحُ: صِنْفٌ مِنَ المَلَائِكَةِ عَلَى صُورَةِ بَنِي آدَمَ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤].

وَالرُّوحُ: مَلَكٌ عَظِيمٌ يُعَادِلُ جَمِيعَ المَلَائِكَةِ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ [النبأ: ٣٨].

وَالرُّوحُ: ابْنُ آدَمَ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ [الإسراء: ٨٥].

وَقَدْ شَهِدَتْ القَوَاطِعُ العَقْلِيَّةُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنْ عَوَارِضِ الأَجْسَامِ، وَعَنْ كُلِّ مَا تُصَوِّرُهُ الأَوْهَامُ.

فصل

اعْلَمْ أَنَّ المَخْلُوقَات عَلَى قِسْمَيْنِ: لَطِيفٌ، وَكَثِيفٌ. فَاللَّطِيفُ: مَا لَا يُدْرِكُهُ البَصَرُ فِي العَادَةِ، كَالأَرْوَاحِ وَالمَلَائِكَةِ وَالجِنِّ. وَالكَثِيفُ: مَا يُدْرِكُهُ البَصَرُ فِي العَادَةِ كَالآدَمِيِّ وَالحَيَوَانَاتِ وَالجَمَادَاتِ، وَيَسْتَحِيلُ فِي العَادَةِ اتِّحَادُ شَيْءٍ بِشَيْءٍ حَتَّى يَصِيرَ الشَّيْئَانِ شَيْئاً وَاحِداً كَمَا قَالَتِ النَّصَارَى فِي اللَّاهُوتِ وَالنَّاسُوتِ، وَإِنَّمَا الأَجْسَامُ تَتَجَاوَرُ إِنِ امْتَزَجَتْ فِي رَأْيِ العَيْنِ، كَامْتِزَاجِ المَاءِ

بِاللَّبَنِ، فَلَيْسَ ذَلِكَ بِاتِّحَادٍ، بَلْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بَاقٍ عَلَى حَقِيقَتِهِ.

وَلَيْسَ الـمُرَادُ بِوَسْوَسَةِ الشَّيْطَانِ إِلَّا أَنْ يَصِلَ إِلَى القَلْبِ فَيُلْقِي فِيهِ مِنْ حَدِيثِهِ مَا يُوَسْوِسُ بِهِ ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا يُرَى، فَيَجْرِي مِنِ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ، وَيُلْقِي إِلَى القَلْبِ الخَوَاطِرَ الرَّدِيئَةَ، كَالرَّجُلِ يُسَارِرُ الرَّجُلَ؛ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

وَيُرْوَى عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**إِنَّ لِلْمَلَكِ لَـمَّةً بِابْنِ آدَمَ وَلِلشَّيْطَانِ لَـمَّةٌ، فَأَمَّا لَـمَّةُ الـمَلَكِ فَإِيعَادٌ بِالخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِالحَقِّ، وَأَمَّا لَـمَّةُ الشَّيْطَانِ فَإِيعَادٌ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبُهُ بِالحَقِّ**»[1]، ثُمَّ تَلَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

وَاللِّمة فِي اللُّغَةِ: الـمُرُورُ وَالزِّيَارَةُ، وَيُقَالُ: أَلَـمَّ فُلَانٌ بِفُلَانٍ، أَيْ: مَرَّ بِهِ وَزَارَهُ. فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ الـمَلَكَ يُلْقِي إِلَى القَلْبِ الوَعْدَ بِالـخَيْرِ وَرَجَاءَ الفَرَجِ وَالفَتْحِ وَالنَّصْرِ لِيَكُونَ الـمُؤْمِنُ مُسْتَبْشِراً بِتَيْسِيرِ كُلِّ عَسِيرٍ، فَيُقْدِمُ عَلَى الطَّاعَاتِ وَيَرْجُو البَرَكَةَ وَالعِوَضَ العَاجِلَ وَالآجِلَ فِي النَّفَقَاتِ، وَيُصَدِّقُ بِمَا وَعَدَ اللهُ مِنْ المَثُوبَاتِ، فَيُبَادِرُ إِلَى القُرُبَاتِ، وَالشَّيْطَانُ بِعَكْسِ ذَلِكَ فَيُلْقِي خَوَاطِرَ الوَعِيدِ بِالفَقْرِ وَالقِلَّةِ، وَيَأْمُرُ بِالفَحْشَاءِ ـ أَيْ البُخْلِ ـ وَمَنْعِ الوَاجِبَاتِ خَوْفاً مِنَ الفَاقَاتِ، فَشَتَّانَ بَيْنَ الخَاطِرَيْنِ، وَمَا أَبْعَدَ تَفَاوُتَ اللِّمَّتَيْنِ.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب: ومن سورة البقرة؛ وابن حبان في صحيحه، كتاب الرقائق، باب الأدعية.

وَلِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِالتَّعَوُّذِ مِنْ وَسْوَسَةِ الشَّيْطَانِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ﴾ أَيْ: أَسْتَجِيرُ ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ أَيْ: مَالِكِهِمْ وَسَيِّدِهِمْ وَمُدَبِّرِهِمْ ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ أَيْ: الـمَعْبُودِ الـمُسْتَحِقِّ لِلْعِبَادَةِ، ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ الـمُوَسْوِسِ بِشَرٍّ، ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾(١) الـمُتَأَخِّرِ السَّاكِنِ، يُقَالُ: خَنَسَ: إِذَا تَأَخَّرَ وَاخْتَفَى وَسَكَنَ.

وَقَدْ وَرَدَ فِي الآثَارِ: إِنَّ الشَّيْطَانَ مُرَاقِبٌ لِقَلْبِ الإِنْسَانِ، فَإِذَا كَانَ حَاضِراً مَعَ اللهِ خَنَسَ عَنْهُ، أَيْ تَأَخَّرَ وَسَكَنَ، وَإِذَا غَابَ القَلْبُ عَنِ اللهِ وَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ.

فَأَوَّلُ خَلَلٍ يَقَعُ فِي القَلْبِ: الغَفْلَةُ، فَإِذَا اسْتَيْقَظَ القَلْبُ سَرِيعاً وَإِلَّا صَارَتْ خَطْرَةً، فَإِنْ رَجَعَ عَنِ الخَطْرَةِ وَإِلَّا صَارَتْ فِكْرَةً، فَإِنْ وَقَفَ عَنِ الفِكْرَة وَإِلَّا صَارَتْ عَزْمَةً، فَإِنْ تَدَارَكَهُ اللهُ بِالرُّجُوعِ وَإِلَّا وَقَعَتِ الـمَعْصِيَةُ، فَإِنْ أَصَرَّ عَلَيْهَا وَتَـمَادَى حَصَلَتْ فِي القَلْبِ قَسْوَةٌ.

وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى قَوْماً يَرْجِعُونَ إِلَى اللهِ بِالتَّوْبَةِ بَعْدَ وُقُوعِ الـمُصِيبَةِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿**وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وَمَدَحَ قَوْماً يَرْجِعُونَ إِلَى اللهِ تَعَالَى قَبْلَ وُقُوعِ الـمُصِيبَةِ، فَقَالَ تَعَالَى:

---

(١) الناس: ١ ـ ٤.



﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، يَعْنِي بِذَلِكَ رُجُوعَهُمْ بَعْدَ لِمَّةِ الشَّيْطَانِ وَقَبْلَ وُقُوعِ القَطَعَانِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ﴾ يَعْنِي إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ، ﴿ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ﴾[1] أَيْ: وَلَا يَنْهَوْنَ عَنِ العِصْيَانِ.

** ** **

(١) الأعراف: ٢٠٢



باب
إِثْبَاتِ الصِّفَاتِ

إِذَا ثَبَتَ بِالنَّظَرِ فِي الـمَصْنُوعَاتِ حُدُوثُ جَمِيعِ الـمَخْلُوقَاتِ، وَأَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى افْتِقَارِهَا إِلَى صَانِعٍ مَوْجُودٍ قَدِيمٍ بَاقٍ صَمَدٍ، لَا يُشْبِهُ شَيْئاً مِنَ الكَائِنَاتِ، وَاحِدٍ أَحَدٍ فَلَا شَبِيهَ لَهُ وَلَا نَظِيرَ، فَرْدٍ وِتْرٍ فَلَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا وَزِيرَ؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وَجَبَ العِلْمُ بِأَنَّهُ مَوْصُوفٌ بِصِفَاتِ الكَمَالِ وَهِيَ: الحَيَاةُ، وَالعِلْمُ، وَالسَّمْعُ، وَالبَصَرُ، وَالقُدْرَةُ، وَالإِرَادَةُ، وَالكَلَامُ.

فصل

فَهُوَ سُبْحَانَهُ حَيٌّ لَا كَالأَحْيَاءِ، شَيْءٌ لَا كَالأَشْيَاءِ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وَمَعْنَاهُ: القَائِمُ بِذَاتِهِ، الغَنِيُّ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، الَّذِي كُلُّ شَيْءٍ مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ(١).

---

(١) لكل صفة من صفات الله ﷻ دليلها من القرآن العظيم، وأثر في سلوك الإنسان عظيم، وقد بين ذلك أئمة أهل السنة خصوصاً الأشاعرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم، ومنهم شيخ مؤلف هذه الرسالة الإمام عز الدين ابن عبد السلام الذي سأنقل قوله في أكثر الصفات فقال: أما دليل الحياة فقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر: ٦٥] وقوله: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾=



فصل

وَهُوَ العَلِيمُ بِمَا كَانَ وَمَا يَكُونُ وَمَا لَا يَكُونُ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩][1].

فصل

وَهُوَ السَّمِيعُ[2] البَصِيرُ[3]، وَالسَّمْعُ وَالبَصَرُ صِفَاتٌ قَدِيمَةٌ، لَا تُشْبِهُ صِفَاتِ الخَلْقِ، وَقَدْ رَدَّ اللهُ عَلَى مَنْ شَبَّهَ وَجَسَّمَ بِقَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ

= [البقرة: ٢٥٥]. وأما ثمرة معرفتها: فالتوكُّل عليه، والالتجاء إليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]. (شجرة المعارف، ص ٧٢، ٧٣)

(١) أما علم الله فدليله قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وأما ثمرة العلم: فالخوف من مولاك، وحياؤك منه في أقوالك وأعمالك وسائر أحوالك. وأما التخلق به، فبأن تعرف ذاته وصفاته، وبأن تعرف أحكامه وأيامه، وحلاله وحرامه، وأن تعرف كل ما يقربك إليه، ويزلفك لديه، مما فرضه عليه أو ندبك إليه. (شجرة المعارف، ص ٧٣، ٧٤)

(٢) أما سمع الله سبحانه، فدليله قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٦] وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤] وأما ثمرة معرفة سمعه، فخوفكَ، أو حياؤك، أو مهابتك، أن يسمع منك ما زجرك عنه من الأقوال، أو كرهه لك منها، وبأن تجتنب كل قول لا يجلب نفعا ولا يدفع ضرا في الحال ولا في المآل. (شجرة المعارف، ص ٧٥)

(٣) أما بصر الله تعالى، فدليله قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٦١]. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤]. وأما ثمرة معرفته: فخوفك منه، أو حياؤك، أو مهابتك أن يراك حيث نهاك، أو يفقدك حيث اقتضاك. (شجرة المعارف ٧٥، ٧٦)

شَيْءٌ﴾، وَرَدَّ عَلَى مَنْ عَطَّلَ وَنَفَى الصِّفَاتِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فصل

وَهُوَ القَادِرُ الَّذِي أَوْجَدَ بِقُدْرَتِهِ جَمِيعَ الكَائِنَاتِ، وَيَقْدِرُ عَلَى إِيجَادِ جَمِيعِ المُمْكِنَاتِ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥][١].

فصل

وَهُوَ المُرِيدُ لِجَمِيعِ الكَائِنَاتِ[٢]، فَالخَيْرُ وَالشَّرُّ وَالنَّفْعُ وَالضَّرُّ وَالإِيمَانُ وَالكُفْرُ كُلُّ ذَلِكَ بِقَضَاءِ اللهِ وَمَشِيئَتِهِ، فَمَا يَكُونُ إِلَّا مَا يُرِيدُ؛ قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [النحل: ٩٣].

وَأَفْعَالُ العِبَادِ مَنْسُوبَةٌ إِلَيْهِمْ كَسْباً، وَيُثَابُونَ عَلَى الطَّاعَةِ فَضْلًا، وَيُعَاقَبُونَ

(١) وأما دليل القدرة، فقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤]. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥]. وأما ثمرة معرفتها، فالإجلال، والمهابة، ورجاء الإنعام، وخوف الانتقام؛ لشمول قدرته لأنواع ما نفع وضرَّ وساء وسرَّ. (شجرة المعارف، ص ٧٣)

(٢) أما إرادة الله فدليلها قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧]، ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: ٤١]. وأما ثمرة معرفة شمول إرادته تعالى وتفردها بالنفوذ: فالخوف والوجل الموجبان لاجتناب الزلل، وإصلاح العمل، وإقصار الأمل. (شجرة المعارف، ص ٧٤)



عَلَى الـمَعْصِيَةِ عَدْلًا ، وَأَفْعَالُـهُمْ كُلُّهَا لِـلَّهِ خَلْقاً ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

فَمَنْ نَفَى كَسْبَ العَبْدِ فَهُوَ جَبْرِيٌّ ، وَمَنْ قَالَ: «إِنَّ العَبْدَ خَالِقٌ لِفِعْلِهِ» فَهُوَ قَدَرِيٌّ ، وَمَنْ قَالَ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى خَالِقٌ لِأَفْعَالِ العِبَادِ وَهِيَ كَسْبٌ لَـهُمْ» فَهُوَ سُنِّي.

فصل

وَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى مَوْصُوفٌ بِصِفَاتِ الكَمَالِ ، وَجَبَ العِلْمُ بِأَنَّهُ مُتَكَلِّمٌ(١) ؛ فَإِنَّ الكَلَامَ مِنْ صِفَاتِ الكَمَالِ ، وَالـمَلِكُ يَأْمُرُ وَيَنْهَى وَيُخْبِرُ وَيُعْلِمُ وَيَعِدُ وَيَتَوَاعَدُ بِكَلَامٍ قَدِيمٍ أَزَلِيٍّ ، لَا يُشْبِهُ كَلَامَ الخَلْقِ ؛ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢] ، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

(١) أما كلامه تعالى، فدليله قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] ، وقوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ [التحريم: ١٢]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [النحل: ٥١] ، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]. وأما ثمرة معرفة الكلام: فمعرفة ذات الله ، وصفاته ، وأمره ، وزجره ، وإباحته ، وحظره ، والاتعاظ بمواعظه ، والازدجار بزواجره ، والتقرب إليه بمفروضاته ، والتحبب بمندوباته. وأما التخلق به فالتكلم بكل ما دلَّك عليه ، وأرشدك إليه ، مما يزلفك لديه: من ذكره ، وشكره ، وتلاوة كتابه ، وإفهام خطابه ، وتعليم كل ما أمرك بتعليمه ، وتفهيم كل ما أمرك بتفهيمه ، والأمر بكل معروف ، والنهي عن كل منكر. (شجرة المعارف ، ص ٧٧)

فَمَنْ قَالَ: إِنَّ كَلَامَ اللهِ تَعَالَى يُشْبِهُ كَلَامَ الخَلْقِ، أَوْ يُشَبِّهُ شَيْئاً مِنْ صِفَاتِهِ بِصِفَاتِ الخَلْقِ فَهُوَ مُجَسِّمٌ، وَمَنْ نَفَى الكَلَامَ فَهُوَ مُعْتَزِلِيٌّ مُعَطِّلٌ، وَمَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ التَّنْزِيهُ عَنِ التَّعْطِيلِ وَالتَّشْبِيهِ.

❊❊ ❊❊ ❊❊

باب
النُّبُوَّاتِ وَمَا وَرَدَ مِنَ السَّمْعِيَّاتِ

قَدْ شَهِدَتِ القَوَاعِدُ العَقْلِيَّةُ بِمَا يَجِبُ لِلَّهِ تَعَالَى مِنَ الوُجُودِ، وَالقِدَمِ، وَالبَقَاءِ، وَالصَّمَدِيَّةِ، وَالوَحْدَانِيَّةِ، وَالحَيَاةِ، وَالعِلْمِ، وَالسَّمْعِ، وَالبَصَرِ، وَالقُدْرَةِ، وَالإِرَادَةِ، وَالكَلَامِ، وَأَنَّهُ مَوْصُوفٌ بِصِفَاتِ الكَمَالِ، مُنْفَرِدٌ بِالعَظَمَةِ وَالجَلَالِ، وَأَنَّهُ يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ كُلُّ صِفَةٍ تَدُلُّ عَلَى النَّقْصِ وَالزَّوَالِ، وَأَنَّ لَهُ أَنْ يُرْسِلَ الرُّسُلَ.

وَقَدْ أَرْسَلَهُمْ وَأَيَّدَهُمْ بِالـمُعْجِزَاتِ، وَخَتَمَهُمْ بِمُحَمَّدٍ سَيِّدِ الـمُرْسَلِينَ، وَأَيَّدَهُ بِمُعْجِزَاتٍ كَثِيرَةٍ، فَيَجِبُ تَصْدِيقُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي كُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ عَنِ اللهِ مِنَ الأَمْرِ، وَالنَّهْيِ، وَالوَعْدِ، وَالوَعِيدِ، وَالـمُغَيَّبَاتِ، وَالحَشْرِ، وَالنَّشْرِ، وَعَذَابِ القَبْرِ، وَسُؤَالِ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ، وَالحِسَابِ، وَالـمِيزَانِ، وَالصِّرَاطِ، وَأَنَّ مَنْ مَاتَ مُؤْمِناً مُصَدِّقاً بِجَمِيعِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُحْسِناً بِأَدَاءِ الفَرَائِضِ وَاجْتِنَابِ الـمَحَارِمِ دَخَلَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ عِقَابٍ، دَخَلَ الجَنَّةَ يَتَنَعَّمُ فِيهَا بِأَنْوَاعِ النَّعِيمِ وَالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِ اللهِ الكَرِيمِ، خَالِداً أَبَداً.

وَمَنْ مَاتَ كَافِراً مُكَذِّباً بِشَيْءٍ مِـمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ النَّارَ خَالِداً أَبَداً، وَمَنْ مَاتَ تَارِكاً لِفَرِيضَةٍ أَوْ مُصِرّاً عَلَى كَبِيرَةٍ فَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ، إِنْ شَاءَ

عَفَا عَنْهُ وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ مِنْ غَيْرِ تَخْلِيدٍ، ثُمَّ يَخْرُجُ بِشَفَاعَةِ الرَّسُولِ ﷺ كُلُّ مُسْلِمٍ، وَلَا يُخَلَّدُ فِي النَّارِ إِلَّا الكُفَّار.

فصل

وَيَجِبُ الإِيمَانُ بِأَنَّ مُحَمَّداً ﷺ سَيِّدُ الـمُرْسَلِينَ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَأَنَّ أَصْحَابَهُ كُلَّهُمْ أَئِمَّةٌ أَبْرَارٌ، وَأَنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ بَعْدَهُ: أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيق، ثُمَّ عُمَر بْنِ الخَطَّابِ، ثُمَّ عُثْمَان بْنَ عَفَّانٍ، ثُمَّ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، ثُمَّ بَقِيَّةُ العَشَرَةِ، ثُمَّ سَائِرُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

فَهَذِهِ عَقِيدَةُ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَاللهُ الـمُسْتَعَانُ، وَهُوَ خَيْرُ مُعِينٌ.

** ** **



باب
بَيَانِ سُلُوكِ الطَّرِيقِ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ تَعْلِيماً لِخَلْقِه: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦ - ٧].

وَسُلُوكُ الطَّرِيقِ إِلَى اللهِ تَعَالَى عَلَى ثَلَاثِ مَرَاتِبَ:

المَرْتَبَةُ الأُولَى
التَّأَهُّبُ لِلسَّفرِ وَأَخْذُ القَاصِدِ فِي السَّيْرِ

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾ [التوبة: ٤٦]، وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**سِيرُوا، سَبَقَ المُفْرِدُونَ**» قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا المُفْرِدُونَ؟ قَالَ: «**المُهْتَرُونَ الَّذِينَ يَهْتُرُونَ فِي ذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، يَضَعُ الذِّكْرُ عَنْهُمْ أَثْقَالَهُمْ فَيَأْتُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ خِفَافاً**»[(١)].

وَهَذَا حَالُ أَهْلِ البِدَايَةِ، وَلِلسَّالِكِينَ فِيهِ مَقَامَات:

فَمِنْهَا اليَقَظَةُ: وَهِيَ الانْتِبَاهُ مِنْ سِنَةِ الغَفْلَةِ وَبِدَايَةُ اسْتِنَارِ القَلْبِ بِنُورِ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب الحث على ذكر الله تعالى.

الحَيَاءِ لِرُؤْيَةِ الذَّنْبِ وَرُؤْيَةِ التَّقْصِيرِ؛ قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ [سبأ: ٤٦].

وَمِنْهَا التَّوْبَةُ: وَهِيَ أَوَّلُ أَبْوَابِ السُّلُوكِ؛ قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٣١]، فَأَوْجَبَ التَّوْبَةَ عَلَى جَمِيعِ الخَلْقِ، فَيَجِبُ عَلَى الكَافِرِ أَنْ يَتُوبَ مِنَ الكُفْرِ، أَيْ يَرْجِعُ عَنْهُ إِلَى الإِيمَانِ، وَعَلَى العَاصِي أَنْ يَرْجِعَ عَنِ المَعْصِيَةِ إِلَى الطَّاعَةِ وَالإِحْسَانِ، وَيَنْبَغِي لِلْمُطِيعِ أَنْ يَتُوبَ مِنْ رُؤْيَةِ أَعْمَالِهِ وَالاعْتِمَادِ عَلَى أَفْعَالِهِ إِلَى رُؤْيَةِ فَضْلِ المَلِكِ؛ قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

وَالتَّوْبَةُ فِي اللُّغَةِ: الرُّجُوعُ، يُقَالُ: تَابَ وَأَنَابَ وَآبَ، يَعْنِي: رَجَعَ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣] أَيْ: رَاجِعٍ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠] أَيْ: كَثِيرُ الرُّجُوعِ إِلَى اللهِ تَعَالَى.

وَمُصْطَلَحُ أَهْلِ الإِشَارَةِ أَنَّ التَّوْبَةَ: الرُّجُوعُ خَوْفاً مِنْ عِقَابِ اللهِ، وَالإِنَابَة: الرُّجُوعُ حَيَاءً مِنْ نَظَرِ اللهِ، وَالأَوْبَة: الرُّجُوعُ هَيْبَةً لِمُشَاهَدَةِ جَلَالِ اللهِ.

وَمِنْهَا المُحَاسَبَةُ: وَهِيَ مُنَاقَشَةُ النَّفْسِ وَمُطَالَبَتُهَا فِي الخَوَاطِرِ الذَّمِيمَةِ، وَنَهْيُهَا عَنْ هَوَاهَا، وَكَفُّهَا عَمَّا فِيهِ رَدَاهَا؛ قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠] وَفِي الحَدِيثِ: «حَاسِبُوا نُفُوسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا»[1].

---

(١) هو من كلام عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما ذكر ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الزهد،=

وَمِنْهَا الرِّيَاضَةُ: وَهِيَ تَـمْرِينُ النَّفْسِ عَلَى تَغْيِيرِ عَوَائِدِهَا الذَّمِيمَةِ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِمْ: «الإِرَادَةُ: تَرْكُ العَادَةِ».

وَمِنْهَا الحُزْنُ عَلَى التَّقْصِيرِ وَفَوَاتِ الأَوْقَاتِ فِي غَيْرِ رِبْحٍ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا﴾ [التوبة: ٩٢].

وَمِنْهَا الخَوْفُ، وَهُوَ لِأَهْلِ البِدَايَةِ خَوْفُ عِقَابِ اللهِ، وَلِأَصْحَابِ السُّلُوكِ مَوْضِعُ الخَوْفِ الحَيَاءُ وَالـمُرَاقَبَةُ حَيَاءً مِنْ نَظَرِ اللهِ، وَلِلْمُتَمَكِّنِ التَّعْظِيمُ وَالإِجْلَالُ وَالـهَيْبَةُ لِـمُشَاهَدَةِ الجَلَالِ.

وَمِنْهَا الرَّجَاءُ، وَهُوَ لِأَهْلِ البِدَايَةِ: رَجَاءُ ثَوَابِ اللهِ، وَلِأَصْحَابِ السُّلُوكِ: التَّنَعُّمُ بِمُنَاجَاةِ اللهِ وَالتَّلَذُّذُ تَحْتَ نَظَرِهِ؛ قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٨ - ٢١٩]، فَخَفَّفَ عَنْهُ أَثْقَالَ القِيَامِ؛ فَإِنَّ الـمُحِبَّ إِنْ عَلِمَ أَنَّ مَحْبُوبَهُ نَاظِرٌ إِلَيْهِ تَلَذَّذَ بِالخِدْمَةِ. وَلِلْمُتَمَكِّنِ: الأُنْسُ بِاللهِ وَمُشَاهَدَةُ أَوْصَافِ الجَمَالِ.

فَالمُبْتَدِئُ يَتَرَدَّدُ بَيْنَ خَوْفٍ وَرَجَاءٍ، وَالسَّالِكُ يَتَرَدَّدُ بَيْنَ قَبْضٍ وَبَسْطٍ، وَالـمُتَمَكِّنُ يَتَرَدَّدُ بَيْنَ هَيْبَةٍ وَأُنْسٍ.

وَصَاحِبُ الخَوْفِ نَاظِرٌ إِلَى الأَفْعَالِ القَهْرِيَّةِ، وَصَاحِبُ الرَّجَاءِ نَاظِرٌ إِلَى الأَفْعَالِ الجَمِيلَةِ، وَصَاحِبُ القَبْضِ وَالبَسْطِ نَاظِرٌ إِلَى الصِّفَاتِ، وَصَاحِبُ الـهَيْبَةِ وَالأُنْسِ نَاظِرٌ إِلَى الذَّاتِ، كُلُّ ذَلِكَ بِنَظَرِ السِّرِّ، لَا بِالعَيْنِ الظَّاهِرَةِ.

= ما ذكر في زهد الأنبياء وكلامهم عليهم السلام؛ والترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق.

وَمِنْهَا التَّقْوَى وَالزُّهْدُ وَالوَرَعُ، وَهِيَ أَبْوَابٌ عَظِيمَةٌ مِنْ أَبْوَابِ البِدَايَةِ، فَالتَّقْوَى: تَرْكُ الـمُحَرَّمَاتِ، وَالوَرَعُ: تَرْكُ الشُّبُهَاتِ، وَالزُّهْدُ: تَرْكُ الفَضَلَاتِ المُبَاحَاتِ.

وَفَائِدَةُ التَّقْوَى: السَّلَامَةُ مِنَ العِقَابِ. وَفَائِدَةُ الوَرَعِ: خِفَّةُ الحِسَابِ. وَفَائِدَةُ الزُّهْدِ: التَّفَرُّغُ لِـخِدْمَةِ الـمَلِكِ الوَهَّابِ.

وَالأَصْلُ فِي التَّقْوَى قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩] وَنَظَائِرُهَا مِنَ الآيَاتِ، وَقَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الموبِقَاتِ**»(١)، وَقَوْلُهُ ﷺ: «**تُبَايِعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئاً، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالحَقِّ**»(٢) وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الأَخْبَارِ.

وَعَلَى الجُمْلَةِ فَالتَّقْوَى: أَدَاءُ الفَرَائِضِ، وَاجْتِنَابُ الـمَعَاصِي، وَذَلِكَ فَرْضٌ بِالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالإِجْمَاعِ.

وَالأَصْلُ فِي الوَرَعِ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «**الحَلَالُ بَيِّنٌ وَالحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَةٌ، فَمَنْ تَرَكَ مَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ كَانَ لِـمَا اسْتَبَانَ أَتْرَكَ، وَمَنْ وَاقَعَ مَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ أَوْشَكَ أَنْ يُوَاقِعَ مَا اسْتَبَانَ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ، وَإِنَّ مَنْ يَرْتَعُ حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ**

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا﴾ [النساء: ١٠] ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها.

(٢) أخرجه مسلم بهذا اللفظ في صحيحه، كتاب الحدود، باب الحدود كفارات لأهلها.

فِيهِ»[١]، وَهَذَا حَدِيثٌ عَظِيمٌ رَوَاهُ البُخَارِي فِي الصَّحِيح.

وَالأَصْلُ فِي الزُّهْدِ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الـمَرْءِ تَرْكُهُ ما لا يَعْنِيهِ»**[٢]، وَهَذَا أَصْلٌ عَظِيمٌ فِي هَذَا البَابِ، فَإِنَّ كُلَّ مَا يُمْكِنُ الغِنَى عَنْهُ مِنَ الـمُبَاحَاتِ[٣] فَهُوَ مِـمَّا لَا يَعْنِي، وَمِنْهُمْ مَنْ طَرَدَ ذَلِكَ فِي الـمَكَاسِبِ وَالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالكَلَامِ وَاللِّبَاسِ وَالحَرَكَاتِ.

فَانْظُرْ كُلَّ خَاطِرٍ يَرِدُ عَلَيْكَ يَأْمُرُكَ بِفِعْلِ شَيْءٍ مِنَ الأَفْعَالِ فَاسْتَقْبِلْهُ بِـ«لِـمَ؟» وَ«لِـمَن؟» وَ«كَيْف؟»، فَهَذِهِ ثَلَاثُ عَقَبَاتٍ، فَإِذَا خَطَرَ لَكَ فِعْلٌ فَفَكِّر لِـمَ تَفْعَلُهُ؟ فَإِنْ كَانَ لَا فَائِدَةَ فِيهِ فِي دِينِكَ أَوْ سَبَبٍ يُعِينُكَ عَلَى دِينِكَ فَاتْرُكْهُ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ فَائِدَةٌ فِي الدِّينِ أَوْ عَوْناً عَلَى الدِّينِ فَفَكِّر لِـمَنْ تَفْعَلُهُ؛ لِتُخْلِصَ قَصْدَكَ فِيهِ لِابْتِغَاءِ مَرْضَاةِ اللهِ، ثُمَّ فَكِّرْ كَيْفَ تَفْعَلُهُ؛ لِتَمْشِيَ فِيهِ عَلَى مَا وَرَدَتْ بِهِ السُّنَّة وَلَا تَبْتَدِعْ فِيهِ بِدْعَةً، فَإِذَا سَلِمَ لَكَ «لِمَ؟» وَ«لِمَن؟» وَ«كَيْف؟» فَقَدْ

---

(١) جمع المؤلف رحمه الله بين ألفاظ حديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه؛ وأيضا في كتاب البيوع، باب: الحلال بيّن؛ ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات.

(٢) أخرجه الإمام مالك في الموطأ، كتاب حسن الخلق، باب ما جاء في حسن الخلق؛ وابن حبان في صحيحه، كتاب الإيمان، باب ما جاء في صفات المؤمنين.

(٣) قال الإمام مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: بلغني أن عمر بن الخطاب قال: «إياي والتنعم وزي الأعاجم». قال القاضي محمد بن رشد: قول عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ «إياي والتنعم» معناه: التحذير من التنعم بالمباحات في الدنيا، وذلك منه على سبيل التورع فيها والتقلل منها؛ لأن من تنعم بشيء من أمور الدنيا فلابد أن يسأل عن تنعمه وما يجب لله عليه من الحقوق فيه؛ قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨]. (البيان والتحصيل لابن رشد، الجامع الأول، ج١٧/ص٦٥)



قَطَعْتَ العَقَبَاتِ وَسَلِمْتَ مِنْهَا.

وَمِنْهَا التَّبَتُّلُ، وَمَعْنَاهُ الانْقِطَاعُ إِلَى اللهِ تَعَالَى؛ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨]، وَلَيْسَ التَّبَتُّلُ بِمُجَرَّدِ العُزْلَةِ بِالظَّاهِرِ، وَإِنَّمَا الـمُرَادُ الانْقِطَاعُ بِقَلْبِكَ عَنْ كُلِّ عَائِقٍ يَشْغَلُكَ عَنِ اللهِ.

وَمَا قَصَدَ القَوْمُ العُزْلَةَ فِي الظَّاهِرِ إِلَّا لِلْعُزْلَةِ فِي البَاطِنِ، فَإِنَّهَا عَوْنٌ عَلَيْهَا، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى عُزْلَةِ البَاطِنِ مَعَ خُلْطَةِ الظَّاهِرِ إِلَّا القَوِيُّ الـمُتَمَكِّنُ.

فَهَذَا أَوَائِلُ مَقَامَاتِ أَهْلِ البِدَايَةِ، وَبَيَانُهُ بِالـمِثَالِ أَنَّ الإِنْسَانَ إِذَا أَرَادَ الحَجَّ مَثَلًا فَأَوَّلُ اشْتِغَالِهِ تَحْصِيلُ زَادِهِ وَتَجْهِيزُ مَا لَابُدَّ لَهُ فِي سَفَرِهِ مِنْهُ، فَهَذَا وَصْفُ أَهْلِ البِدَايَةِ وَهُوَ الَّذِي تَقَدَّمَ فِي الـمَرْتَبَةِ الأُولَى.

ثُمَّ إِنَّ الحَاجَّ إِذَا خَرَجَ عَنْ وَطَنِهِ وَتَوَجَّهَ إِلَى مَقْصِدِهِ تَغَرَّبَ عَنْ أَهْلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَمَعَارِفِهِ وَمَا أَلِفَهُ وَعَوَائِدَهُ فِي نَوْمِهِ وَرَاحَتِهِ وَأُنْسِهِ بِأَحْبَابِهِ، وَأَخَذَ فِي قَطْعِ الـمَرَاحِلِ وَوَعْرِ الـمَنَازِلِ وُرُوداً لِلْمَنَاهِلِ، فَهُوَ السَّالِكُ صَاحِبُ الـمَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ وَهِيَ الغُرْبَةُ، فَإِذَا وَصَلَ إِلَى مَكَّةَ وَأَخَذَ فِي الطَّوَافِ وَالسَّعْيِ وَالوُقُوفِ وَالرَّمْيِ فَقَدْ وَصَلَ إِلَى مَطْلُوبِهِ، وَهُوَ صَاحِبُ الـمَرْتَبَةِ الثَّالِثَةِ.

* * *

الـمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ

الـغُـرْبَـةُ

وَالأَصْلُ فِي الـمَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ حَدِيثٌ رَوَاهُ جَعْفَرٌ الخلدي عَنِ الجُنَيْدِ عَنْ سَرِيٍّ السَّقَطِيِّ عَنْ مَعْرُوفٍ الكَرْخِيِّ عَنْ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ عَنْ أَبِيهِ مُحَمَّدٍ عَنْ جَدِّهِ عَنْ زَيْنِ العَابِدِينَ بْنِ الحُسَيْنِ عَنْ جَدِّهِ عَلِيٍّ بَنْ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «طَلَبُ الحَقِّ غُرْبَةٌ».

وَلِلسَّالِكِينَ فِيهِ مَقَامَات:

فَمِنْهَا الإِرَادَةُ: وَمَعْنَاهَا تَصْحِيحُ القَصْدِ، وَتَجْرِيدُ الطَّلَبِ، وَمُرَاعَاةُ الأَنْفَاسِ فِي التَّوَجُّهِ إِلَى اللهِ تَعَالَى، فَإِنَّ مَنْ أَرَادَ غَرْسَ بُسْتَانٍ فَلَابُدَّ لَهُ أَوَّلًا مِنْ تَنْقِيَةِ أَرْضِهِ مِنَ الشَّوْكِ، فَهُوَ الـمَرْتَبَةُ الأُولَى، فَإِذَا تَنَظَّفَتِ الأَرْضُ شَرَعَ فِي الغَرْسِ وَسَقْيِ الشَّجَرِ، فَهِيَ الـمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ، فَإِذَا أَثْمَرَتِ الشَّجَرَةُ وَجَنَى ثِمَارَهَا فَهِيَ الـمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ.

فَأَوَّلُ الطَّرِيقُ تَنْظِيفُ البَاطِنِ مِنْ أَوْصَافِ النَّفْسِ الذَّمِيمَةِ، فَإِذَا حَصَلَتِ النَّظَافَةُ اشْتَغَلَ بِمُرَاعَاةِ قَلْبِهِ عَنِ الغَفْلَةِ، وَاسْتَفْرَغَ وَقْتَهُ فِي الاشْتِغَالِ بِاللهِ تَعَالَى، فَصَارَ كَالحَارِسِ عَلَى بَابِ قَلْبِهِ، كُلَّمَا مَرَّ بِهِ خَاطِرٌ يُشْغِلُهُ تَابَ إِلَى اللهِ تَعَالَى فَانْتَفَى عَنْهُ ذَلِكَ الخَاطِرُ.



فَمَا دَامَ السَّالِكُ مُرَاعِياً لِقَلْبِهِ، حَارِساً لَهُ عَنِ الغَفْلَةِ فَهُوَ فِي القُرْبَةِ فِي المَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ، وَهُوَ عَلَى البَابِ، فَإِذَا صَارَتِ الـمُشَاهَدَةُ وَطَنَهُ وَالاشْتِغَالُ بِاللهِ مَسْكَنَهُ فَهُوَ عَلَى البِسَاطِ، وَهُوَ صَاحِبُ الـمَرْتَبَةِ الثَّالِثَةِ، فَالأَوَّلُ فِي الطَّرِيقِ، وَالثَّانِي عَلَى البَابِ، وَالثَّالِثُ عَلَى البِسَاطِ.

فَوَا أَسَفَاهُ عَلَى قُلُوبٍ لَـمْ تَتَفَرَّغْ لِلسَّيْرِ فِي الطَّرِيقِ وَهِيَ تَدَّعِي أَنَّهَا عَلَى البِسَاطِ، وَيَا حَسْرَتَاهُ عَلَى مَنْ دَخَلَ فِي أَوَّلِ الطَّرِيقِ وَلَا يَدْرِي كَيْفَ يَسْلُكُ وَهُوَ يَدَّعِي أَنَّهُ دَلِيلُ الرَّكْبِ، بَلْ وَاخَجْلَتَاهُ عَلَى مَنْ قَرَأَ كِتَابَ الأَطْعِمَةِ وَصِفَةَ الطَّبْخِ وَاعْتَقَدَ أَنَّ مَعْرِفَةَ الطَّبْخِ تُشْبِعُ الجَائِعَ وَتَكْفِي التَّابِعَ. نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَتَوَلَّى إِرْشَادَنَا بِعِنَايَتِهِ.

وَالقَصْدُ الصَّحِيحُ: إِخْلَاصٌ ثُمَّ صِدْقٌ، فَالإِخْلَاصُ: العَمَلُ لِـلَّهِ وَتَصْفِيَةُ القَصْدِ مِنَ الرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ، وَالصِّدْقُ: هُوَ العَمَلُ بِاللهِ، وَهُوَ التَّخَلُّصُ مِنْ مُلَاحَظَةِ العَمَلِ بِرُؤْيَتِهِ مِنَ اللهِ وَالسَّلَامَةُ مِنَ العُجْبِ وَالسُّكُونِ إِلَى الأَحْوَالِ الصَّافِيَةِ وَالأَعْمَالِ الزَّاكِيَةِ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧]، عَرَّفَهُ أَنَّ الصَّبْرَ مِنَ اللهِ، فَكَمْ بَيْنَ عَامِلٍ لِـلَّهِ وَعَامِلٍ بِاللهِ، الأَوَّلُ يَتَقَرَّبُ بِالعَمَلِ، وَالثَّانِي يُلَاحِظُ فَضْلَ اللهِ فِي العَمَلِ.

وَمِنْهَا الفِرَارُ إِلَى اللهِ تَعَالَى؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠]، وَالفِرَارُ إِنَّمَا هُوَ بِالقَلْبِ بِأَنْ تَفِرَّ بِخَاطِرِكَ عَنْ كُلِّ تَعَلُّقٍ يُشْغِلُكَ عَنْ ذِكْرِ اللهِ.

وَالذِّكْرُ البَاطِنُ عَلَى ثَلَاثِ مَرَاتِبَ: مُحَاضَرَةٌ، ثُمَّ مُرَاقَبَةٌ، ثُمَّ مُشَاهَدَةٌ.

* **الأُولَى**: الـمُحَاضَرَةُ: وَمَعْنَاهَا النَّظَرُ فِي آلَاءِ اللهِ وَالتَّدَبُّرُ فِي بَدَائِعِ

صُنْعَةِ اللهِ وَالتَّفَكُّرِ فِي أَلْطَافِ اللهِ، وَلَا تَرَى شَيْئاً إِلَّا وَكَأَنَّهُ يَدْعُوكَ إِلَى اللهِ.

* **وَالثَّانِيَةُ:** الـمُرَاقَبَةُ: وَهِيَ عِلْمُكَ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى نَاظِرٌ إِلَيْكَ مُطَّلِعٌ عَلَيْكَ، فَتُلَاحِظُ هَذَا العِلْمَ بِخَاطِرِكَ حَتَّى لَا يَغِيبَ عَنْ قَلْبِكَ، وَهَذَا أَصْلُ كُلِّ خَيْرٍ؛ فَمِنْهُ يَحْصُلُ الخُشُوعُ البَاطِنُ حَيَاءً مِنْ نَظَرِ اللهِ، وَمِنْهُ يَحْصُلُ التَّوَاضُعُ لِـجَلَالِ اللهِ فَيَظْهَرُ مِنْهُ التَّوَاضُعُ لِـخَلْقِ اللهِ.

* **وَالثَّالِثَةُ:** الـمُشَاهَدَةُ: وَهِيَ مُشَاهَدَةُ جَلَالِ اللهِ تَعَالَى وَالاسْتِغْرَاقُ فِي الـهَيْبَةِ أَوِ الأُنْسِ بِاللهِ.

فَصَاحِبُ الـمُحَاضَرَةِ مَعَ الأَفْعَالِ، وَصَاحِبُ الـمُرَاقَبَةِ مَعَ الصِّفَاتِ، وَصَاحِبُ الـمُشَاهَدَةِ مَعَ الذَّاتِ.

وَقَدْ جَمَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الـمُرَاقَبَةَ وَالـمُشَاهَدَةَ بِالإِشَارَةِ إِلَيْهِمَا فِي قَوْلِهِ: «**الإِحْسَانُ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَـمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكُ**»[1]، فَالأُولَى الـمُشَاهَدَةُ، فَإِنْ لَـمْ تَحْصُلْ فَالـمُرَاقَبَةُ، وَكُلُّ مَا كَانَ قَبْلَ الـمُرَاقَبَةِ وَالـمُشَاهَدَةِ فَهُوَ سَيْرٌ فِي الطَّرِيقِ قَبْلَ الوُصُولِ إِلَى البَابِ، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٢١].

وَمِنْ أَحْوَالِ السَّالِكِينَ: الشَّوْقُ: وَهُوَ التَّلَهُّفُ وَالاشْتِيَاقُ إِلَى الوُصُولِ، وَمِنْهُ يَزِيدُ العَطَشُ، وَيَحْصُلُ الوَجْدُ وَالدَّهَشُ، وَيَكْثُرُ القَلَقُ وَيَظْهَرُ الحَرَقُ.

وَصَاحِبُ هَذِهِ الحَالَةِ يَسْتَرِيحُ إِلَى مَا يُرِيحُهُ وَيُطْمِعُهُ فِي الوُصُولِ وَيُقَرِّبُ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، سورة البقرة - باب قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]

لَهُ بُلُوغَ الـمَأْمُولِ، فَيَتَعَلَّلُ بِالسَّمَاعِ تَعَلُّلَ الـمَرِيضِ بِالشَّرَابِ، وَذَلِكَ لِضَرُورَةِ لَوْعَةِ الوَجْدِ وَحُرْقَةِ القَلَقِ.

فَأَمَّا مَنْ يَقْصِدُ بِالسَّمَاعِ هَيَجَانَ خَاطِرٍ وَتَحْرِيكَ سَاكِنٍ فَهُوَ مُتَوَاجِدٌ وَلَيْسَ بِوَاجِدٍ، فَالسَّمَاعُ تَوَاجُدٌ وَهُوَ طَلَبٌ، وَوَجْدٌ وَهُوَ سَيْرٌ وَنَصَبٌ، وَوُجُودٌ وَهُوَ سُرُورٌ وَطَرَبٌ.

وَقَدْ عَلِمَ اللهُ مِنِّي أَنَّ الكَلَامَ فِي هَذَا الفَنِّ قَدْ طَوَيْتُهُ عَنِّي، وَإِنَّمَا صِدْقُ طَلَبِكُمْ[1] أَنْعَشَ فِكْرِي فَدَرَجْتُهُ فِي غَيْرِ وَكْرِي.

وَمِنْ مَقَامَاتِ السَّالِكِينَ: التَّوَكُّلُ، وَلَا يَتَفَرَّغُ القَلْبُ لِلَّهِ عَجَّلَ حَتَّى يُصْبِحَ تَوَكُّلُهُ عَلَى اللهِ؛ قَالَ اللهُ عَجَّلَ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِماصاً وَتَرُوحُ بِطَاناً**»[2].

وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِ التَّوَكُّلِ تَرْكُ الأَسْبَابِ، وَإِنَّمَا التَّوَكُّلُ: سُكُونُ القَلْبِ إِلَى تَدْبِيرِ اللهِ تَعَالَى مَعَ الدُّخُولِ فِي الأَسْبَابِ.

وَقَدْ رُوِّينَا عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**المُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَكُلٌّ عَلَى خَيْرٍ. احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَلَا تَعْجَزْ، فَإِنْ فَاتَكَ أَمْرٌ فَقُلْ: كَذَا قُدِّرَ وَكَذَا كَانَ، وَلَا تَقُلْ لَوْ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**»[3].

---

(١) هذا يشير إلى أن الإمام الديريني إنما صنف هذه الرسالة بطلب من بعض أصحابه.

(٢) حديث صحيح أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب التوكل واليقين.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله.

وَمَعْنَى «المُؤْمِنُ القَوِيُّ» فِي هَذَا الحَدِيثِ: الـمُتَسَبِّبُ الَّذِي قَوِيَ عَلَى طَلَبِ الكَسْبِ مَعَ صِحَّةِ التَّوَكُّلِ وَسَلَامَةِ الدِّينِ وَالاشْتِغَالِ بِاللهِ عَزَّوَجَلَّ. وَيَعْنِي بِـ«الضَّعِيفِ»: مَنْ عَجزَ عَنِ الجَمْعِ بَيْنَهُمَا فَاشْتَغَلَ بِالآخَرِ، فَأَمَّا مَنْ قَوِيَ عَلَى الكَسْبِ مَعَ الغَفْلَةِ وَالتَّفرِيطِ فَإِنَّهُ ضَعِيفٌ، فَإِنَّهُ اشْتَغَلَ بِالأَدْنَى عَلَى الأَعْلَى.

وَالسُّكُونُ بِالقَلْبِ إِلَى ضَمَانِ اللهِ هُوَ التَّوَكُّلُ، وَالسُّكُونُ إِلَى عِلْمِ اللهِ هُوَ التَّفْوِيضُ، وَهُوَ كَقَوْلِ الخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَدْ رُمِيَ فِي الـمَنْجَنِيقِ: «أَمَّا إِلَيْكَ فَلَا» حِينَ تَعَرَّضَ لَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الـهَوَاءِ فَقَالَ لَهُ: أَلَكَ حَاجَة؟ قَالَ: «أَمَّا إِلَيْكَ فَلَا»، قَالَ: فَاسْأَلِ اللهَ حَاجَتَكَ. قَالَ: «حَسْبِي مِنْ سُؤَالِي عِلْمُهُ بِحَالِي»، فَإِذَا رَضِيَ العَبْدُ بِجَمِيعِ أَحْكَامِ اللهِ وَلَـمْ يَشْتَغِلْ بِـهَمِّ نَفْسِهِ فَهُوَ صَاحِبُ التَّسْلِيمِ.

وَالسُّكُونُ عَلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ: الأُولَى: التَّوَكُّلُ. وَالثَّانِيَةُ: التَّفْوِيضُ. وَالثَّالِثَةُ: التَّسْلِيمُ.

قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]، مَعْنَاهُ: مَنْ آمَنَ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الـمَلِكُ الـمُدَبِّرُ الـمُصَرِّفُ الَّذِي لَا نَفْعَ لِشَيْءٍ إِلَّا بِإِرَادَتِهِ، هُدِيَ قَلْبُهُ إِلَى الرِّضَى وَالتَّسْلِيمِ لِأَحْكَامِ اللهِ تَعَالَى.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ﴾ يَعْنِي اللَّوْح الـمَحْفُوظ ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ أَيْ: نَخْلُقَهَا ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ أَيْ: أَخبَرْنَاكُمْ بِذَلِكَ كَيْ لَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ مِنَ الدُّنْيَا، فَإِنَّكُمْ لَـمْ تَكُونُوا تُدْرِكُونَهُ أَبَداً، ﴿وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ

ءَاتَىٰكُمْ﴾(١) فَإِنَّهُ لَا يَفُوتُكُمْ.

وَفِي الحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ عَلَى عَبْدِاللهِ بْنِ مَسْعُودٍ فَوَجَدَهُ مُطْرِقاً مُفَكِّراً فَقَالَ: «**لَا تُكْثِرْ هَمَّكَ؛ مَا يُقَدَّرُ يَكُنْ، وَمَا تُرْزَقْ يَأْتِيكَ**»(٢). وَهَذَا الحَدِيثُ أَصْلٌ جَامِعٌ فِي هَذَا البَابِ، فَإِنَّ الفِكْرَةَ فِي الـمُسْتَقْبَلِ إِمَّا لِأَمْرٍ يَخَافُهُ أَوْ لِشَيْءٍ يَطْلُبُهُ، فَقَالَ: «**مَا يُقَدَّرُ يَكُنْ**» يَعْنِي: مَا يُصِيبُكَ إِلَّا مَا كُتِبَ عَلَيْكَ، «**وَمَا تُرْزَقُ يَأْتِيكَ**» يَعْنِي: مَا كُتِبَ لَكَ مِنَ الرِّزْقِ فَلَا يَفُوتُكَ، وَالثِّقَةُ بِاللهِ أَصْلُ فَرَاغِ القَلْبِ لِـلَّهِ.

وَمِنْ مَقَامَاتِ السَّالِكِينَ: الصَّبْرُ عَلَى أَحْكَامِ اللهِ، وَمَعْنَاهُ: تَجَرُّعُ الـمَرَارَةِ وَكَظْمُ الشَّكْوَةِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [الزمر: ١٠]، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا أُعْطِى العَبْدُ عَطَاءً أَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ**»(٣).

وَمَنْ نَظَرَ بِقَلْبِهِ فِي عُبُودِيَّتِهِ صَبَرَ عَلَى أَحْكَامِ سَيِّدِهِ؛ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿**ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ**﴾ [البقرة: ١٥٦] مَعْنَاهُ: إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا بِقُلُوبِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ: ﴿**إِنَّا لِلَّهِ**﴾ يَعْنِي: نَحْنُ مِلْكٌ لِـلَّهِ، وَالعَبْدُ لَا اعْتِرَاضَ لَهُ عَلَى مَالِكِهِ، ﴿**وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ**﴾ أَيْ: مَصِيرُ أُمُورِنَا كُلِّهَا إِلَيْهِ، وَتَدْبِيرُ

---

(١) الحديد: ٢٢ ـ ٢٣

(٢) أخرجه البيهقي في الثالث عشر من شعب الإيمان، وأيضا في كتابه «القضاء والقدر»، باب ذكر البيان أن ما كتب على ابن آدم...

(٣) طرف من حديث صحيح أخرج أبو داود في سننه، كتاب الزكاة، باب في الاستعفاف في الاستعفاف.

جَميعِ أَحْوَالِنَا رَاجعٌ إِلَيْهِ، فَلَا مَفَرَّ لَنَا مِنْ حُكْمِهِ وَقَضَائِهِ، وَإِلَيْهِ نَرْجعُ فِي الآخِرَةِ فَيُجَازِينَا بِالجَزَاءِ الجَمِيلِ.

فَالصَّبْرُ ثَمَرَةُ العُبُودِيَّةِ، ثُمَّ بَعْدَهُ الرِّضَى وَهُوَ ثَمَرَةُ المَحَبَّةِ، فَإِنَّ المُحِبَّ لَا يَكْرَهُ أَفْعَالَ مَحْبُوبِهِ.

وَحَقِيقَةُ الرِّضَى: زَوَالُ المَرَارَةِ، فَلَا يَجِدُ لِلْبَلَاءِ مَرَارَةً، فَإِنْ قَوِيَ وَجَدَ لَذَّةَ الأَحْكَامِ كَمَا يَلْتَذُّ المُحِبُّ بِضَرْبِ مَنْ يُحِبُّهُ.

وَمَنْ لَمْ يَجِدْ هَجْرَ المُحِبِّ كَوَصْلِهِ فَقَدْ جَهِلَ المَحَبَّةَ وَادَّعَى

وَمِنْ ثَمَرَةِ الرِّضَى: حُسْنُ الخُلُقِ وَمُقَابَلَةُ المُسِيءِ بِالإِحْسَانِ؛ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [الرعد: ٢٢]، وَقَدْ قَالُوا: التَّصَوُّفُ بَابَانِ: صِدْقٌ مَعَ الخَلْقِ وَالحَقِّ، وَخُلُقٌ.

وَمِنْ مَقَامَاتِ السَّالِكِينَ: الشُّكْرُ؛ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤].

وَالشُّكْرُ يَكُونُ بِالقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالجَوَارِحِ، فَشُكْرُ القَلْبِ: الاعْتِرَافُ بِالنِّعْمَةِ. وَشُكْرُ اللِّسَانِ: الثَّنَاءُ عَلَى اللهِ تَعَالَى بِذِكْرِ نِعَمِهِ. وَشُكْرُ الجَوَارِحِ: الاسْتِعَانَةُ بِالنِّعَمِ عَلَى الطَّاعَةِ؛ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣].

* * *



المَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ

الوُصُولُ إِلَى المُشَاهَدَةِ

وَهُوَ لِلمُتَمَكِّنِ، وَمَا دَامَ العَبْدُ فِي مُجَاهَدَةِ نَفْسِهِ فَهُوَ فِي المَرْتَبَةِ الأُولَى مُجْتَهِدٌ فِي تَجْهِيزِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي سَفَرِهِ، فَإِذَا اشْتَغَلَ بِمُرَاعَاةِ قَلْبِهِ فَهُوَ سَالِكٌ فِي سَائِرِ الطَّرِيقِ فِي المَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ، فَإِذَا اشْتَغَلَ بِرَبِّهِ وَاسْتُغْرِقَتْ أَوْقَاتُهُ فِي مُشَاهَدَةِ جَلَالِهِ وَجَمَالِهِ بِقَلْبِهِ فَهُوَ فِي المَرْتَبَةِ الثَّالِثَةِ؛ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

وَقَدْ وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**الإِحْسَانُ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**»(١)، وَقَدْ قَالَ بَعْضُ العُلَمَاءِ فِي قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٥]: السَّاجِدُ كَرْهاً: العَابِدُ وَالمُجَاهِدُ. وَالسَّاجِدُ طَوْعاً: المُحِبُّ المُشَاهِدُ.

فَالنَّاسُ ثَلَاثَةٌ: تَائِبٌ مِنْ ذَنْبِهِ، وَمُرَاعٍ لِقَلْبِهِ، وَمُشَاهِدٌ لِرَبِّهِ. فَسُبْحَانَ مَنْ قَسَمَ بَيْنَ عِبَادِهِ، وَصَرَّفَ أُمُورَهُمْ عَلَى وَفْقِ عِلْمِهِ وَمُرَادِهِ، فَخَصَّ قَوْماً بِوِدَادِهِ، وَرَمَى آخَرِينَ بِبِعَادِهِ؛ ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وَمِنْ أَحْوَالِ الوَاصِلِينَ: المَحَبَّةُ. وَهِيَ عَقَبَةٌ تَلْتَقِي فِيهَا مُقَدَّمَةُ العَوَامِّ

---

(١) سبق تخريجه.

وَسَاقَةُ الخَوَاصِّ ؛ قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ﴾ [المائدة: ٥٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ الإِيمَانَ: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»**[1].

وَيُقَالُ: «الحُبُّ كَأْسٌ فِي الفُؤَادِ كَمَا أَنَّ النَّارَ فِي الزِّنَادِ، إِنْ قَدَحْتَهُ أَوْرَى، وَإِنْ تَرَكْتَهُ وَارَى، يُسْتَدَلُّ عَلَيْهِ بِآثَارِهِ، وَيَظْهَرُ عَلَى صَاحِبِهِ بِأَنْوَارِهِ».

وَيُقَالُ: «المَحَبَّةُ: إِفْرَاطُ المَيْلِ بِلَا نَيْلٍ».

وَقَدْ رَأَيْتُ فِي المَنَامِ زَمَاناً شَيْخاً عَلَيْهِ أَنْوَارُ القَبُولِ، يَتَوَاجَدُ كَالوَلْهَانِ، فَسَأَلَنِي عَنِ المَحَبَّةِ فَقُلْتُ: «المَحَبَّةُ فِيهَا بَيَانٌ لَهَا مِنْهَا، وَشُغْلٌ بِهَا عَنْهَا»، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ نَظَمْتُ فِي المَعْنَى[2]:

تَحَدَّثْ بِأَسْرَارِ المَحَبَّةِ أَوْ صُنْهَا ... فَآثَارُهَا فِيهَا بَيَانٌ لَهَا مِنْهَا

شَوَاهِدُهَا تَبْدُو وَإِنْ كَانَ سِرُّهَا ... خَفِيّاً فَقَدْ بَانَتْ وَإِنْ لَمْ تُبِنْهَا

(١) أخرجه بهذا اللفظ مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان؛ والبخاري بنحوه في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان.

(٢) وهذه الرؤيا والأبيات المذكورة ذكرها الصفدي في الوافي بالوفيات نقلا عن شهب الدين أحمد بن منصور المعروف بابن الجباس (ج١٨/ص٢٨٤، ٢٨٥).



لَقَـدْ جُلِيَـتْ حَتَّـى طَمِعْنَـا بِنَيْلِهَـا وَجَلَّتْ فَلَا تَـدْرِي العُقُولُ لَها كُنْها
لَنَـا مِـنْ سَـنَاهَا حَيْـرَةٌ وَهِدَايَـةٌ وَدِلٌّ وَإِدْلَالٌ وَشُـغْلٌ بِهَـا عَنْهَـا

وَمِنْ ثَمَرَاتِ الـمَحَبَّةِ: الأُنْسُ بِاللهِ، وَهُوَ الاسْتِغْرَاقُ فِي مُشَاهَدَةِ الجَمَالِ، كَمَا أَنَّ الـهَيْبَةَ لِمُشَاهَدَةِ الجَلَالِ، وَقَدْ جَمَعَ اللهُ بَيْنَ وَصْفِ الجَلَالِ وَالجَمَالِ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

وَمِنْ أَحْوَالِ العَارِفِينَ: الفَقْرُ وَالغِنَى، وَحَقِيقَةُ الفَقْرِ: الافْتِقَارُ إِلَى اللهِ تَعَالَى وَالتَّذَلُّلُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَالفَقِيرُ: الَّذِي لَا يَعْتَمِدُ عَلَى عَمَلٍ وَلَا مَقَامٍ وَلَا حَالٍ؛ فَإِنَّ مَا سِوَى اللهِ تَعَالَى فَالاعْتِمَادُ عَلَيْهِ ضَعِيفٌ وَالغِنَى بِهِ زَائِلٌ، وَلَيْسَ الغِنَى الحَقِيقِيُّ إِلَّا الغِنَى بِاللهِ وَالاعْتِمَاد عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ.

وَقَدْ نَظَمْتُ فِي مَعْنَى الفَقْرِ زَمَانَ الفَقْرِ:

خَمْـسُ حَقَـائِق إِنْ حُقِّقَـتْ عِلْمـاً وَحَـالًا فَـالفَقِيرُ مُحَقِّـقْ
خُـذْ عَـدَّهَا فَتَحَقَّـقٌ وَتَوَثُّـقْ وَتَعَلُّـقٌ وَتَخَلُّـقٌ وَتَملُّـقْ

وَفِي هَذَيْنِ البَيْتَيْنِ كِفَايَةٌ فِي مَعْنَى الفَقْرِ؛ فَالتَّحَقُّقُ: مَعْرِفَةُ اللهِ ﷻ. وَالتَّوَثُّقُ: الثِّقَةُ بِضَمَانِ اللهِ وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ. وَالتَّعَلُّقُ: شَغَفُ القَلْبِ بِذِكْرِ اللهِ وَالإِقْبَالُ عَلَيْهِ وَالتَّوَجُّهُ إِلَيْهِ. وَالتَّخَلُّقُ: الاقْتِدَاءُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ فِي أَفْعَالِهِ وَأَخْلَاقِهِ. وَالتَّمَلُّقُ: الافْتِقَارُ إِلَى اللهِ وَأَنْ لَا يُعْتَمَدَ عَلَى شَيْءٍ سِوَاهُ. فَفِي الفَقْرِ إِلَيْهِ الغِنَى بِهِ، وَمَنْ طَلَبَ اللهَ وَجَدَهُ، وَمَنْ وَجَدَهُ مَا ضَرَّهُ مَا فَقَدَهُ.

وَمِنْ أَحْوَالِ العَارِفِينَ: التَّوْحِيدُ، وَهُوَ مِنْ أَعْلَى الأَحْوَالِ وَأَجَلِّ الـمَرَاتِبِ، وَمَا رَأَيْتُ مَنْ كَانَ يُشِيرُ إِلَيْهِ سِوَى الشَّيْخ عَبْدُالله بْنُ أَسَدٍ البلْتَاجِي[1] وَكَانَ فَقِيرَ عَصْرِهِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ فِي الـمَنَامِ فِي زَمَنِ الصِّبَى كَأَنَّ الأَقْطَارَ مُطْبِقَةً بِنَارٍ فَوْقَهَا ظُلْمَةٌ وَفِي وَسَطِهَا طَرِيقٌ مُسْتَقِيمٌ فِي آخِرِهَا مَسْجِدٌ عَظِيمٌ وَأَنَا أَسْعَى فِي الطَّرِيقِ، حَتَّى دَخَلْتُ المَسْجِدَ فَلَمْ أَجِدْ فِيهِ سِوَى الشَّيْخ عَبْدُالله وَحْدَهُ وَعَلَى رَأْسِهِ قِنْدِيلٌ يُضِيءُ، فَقُلْتُ: إِنَّهُ فَرِيدُ عَصْرِهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَالتَّوْحِيدُ المُشَارُ إِلَيْهِ تَوْحِيدُ الخَوَاصِّ وَهُوَ أَنْ لَا تَرَى فِي الوُجُودِ فَاعِلًا سِوَاهُ، وَتُشَاهِدَ جَمِيعَ الأَشْيَاءِ قَائِمَةً بِتَدْبِيرِهِ، فَتَغِيبَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى عَنْ نَفْسِكَ، ثُمَّ تَغِيبَ عَنْ رُؤْيَةِ غَيْبَتِكَ؛ ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، قَالَ بَعْضُ العُلَمَاءِ: «لَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ مِنْ ذِكْرِكِمْ إِيَّاهُ». فَنَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَرُدَّنَا إِلَيْهِ بِحُسْنِ عِنَايَتِهِ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

فَهَذَا القَدْرُ اليَسِيرُ جَوَابُ سُؤَالِكُمْ عَنِ التَّصَوُّفِ مَا هُوَ، وَلَوْلَا قَصْدُكُمْ وَصِحَّةُ وُدِّكُمْ مَا نَطَقْتُ مِنْهُ بِحَرْفٍ، فَإِنِّي أَرَى هِمَمَ أَهْلِ زَمَانِنَا قَاصِرَةً عَنْهُ، مُنْصَرِفَةً إِلَى مَا يَجْنُونَ ثَمَرَتَهُ الفَانِيَةَ عَاجِلًا، وَإِنْ تَرَامَوْا إِلَى هَذَا الأَمْرِ فَبِمُجَرَّدِ الدَّعْوَى، إِلَّا مَنْ بَقِيَ مِنَ الصَّادِقِينَ، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ، وَاللهُ عَزَّ وَجَلَّ الـمَسْؤُولُ أَنْ يَنْفَعَنَا وَإِيَّاكُمْ بِفَضْلِهِ.

وَهَا أَنَا أَتَكَلَّمُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى عَلَى بَقِيَّةِ الأَسْئِلَةِ، وَاللهُ المُسْتَعَانُ.

---

(١) لم أقف على ترجمة مستقلة له، ولكن ذكره التاج السبكي في طبقاته عند الترجمة للإمام عز الدين ابن عبد السلام: (ج٨/ص١٠٧)

فصل

فِي صِفَةِ الفَقِيرِ الَّذِي يَصْلُحُ لَهُ السَّفَرُ

يَنْبَغِي لِلْفَقِيرِ أَوَّلًا أَنْ يَنْظُرَ فِي سَفَرِهِ هَلْ يَجِدُ فِيهِ زِيَادَةً فِي عِلْمٍ أَوْ أَدَبٍ أَوِ اجْتِهَادٍ أَوْ حُضُورِ قَلْبٍ أَوْ لَا يَجِدُ ذَلِكَ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فِي سَفَرِهِ زِيَادَةً فَالإِقَامَةُ أَوْلَى، فَإِنْ أَقَامَ وَلَهُ عِيَالٌ فَأَحْسَنُ أَحْوَالِهِ كَسْبُ الحَلَالِ وَالكَدُّ عَلَى العِيَالِ وَخِدْمَةُ مَنْ يَرِدُ عَلَيْهِ مِنَ الفُقَرَاءِ عَلَى قَدْرِ حَالِهِ، وَلَا يُسَافِرُ إِلَّا أَنْ يَجِدَ زِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ.

هَذَا إِذَا كَانَ رَشِيداً يُسَافِرُ بِرَأْيِهِ، وَالرَّشِيدُ هُوَ الَّذِي صَحَّ قَصْدُهُ وَاسْتَقَامَ حَالُهُ مَعَ اللهِ تَعَالَى، وَحَصَّلَ مِنَ العِلْمِ وَالأَدَبِ مَا يَعْمَلُ بِهِ فِي انْفِرَادِهِ، فَأَمَّا مَنْ هُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى التَّعْلِيمِ وَالتَّأْدِيبِ فَلَا يُسَافِرُ إِلَّا تَحْتَ حُكْمِ شَيْخٍ يُبَصِّرُهُ بِعَمَلِهِ وَيَقْهَرُهُ بِحُكْمِهِ.

فصل

فِي الَّذِي يَصْلُحُ لَهُ الأَمْرُ وَالنَّهْيُ وَيُقْتَدَى بِهِ

إِذَا كَانَ الشَّيْخُ عَالِماً بِاللهِ، صَحِيحَ الاعْتِقَادِ، عَارِفاً بِالتَّوْحِيدِ وَأَدِلَّتِهِ، عَالِماً بِمَا يَلْزَمُ الفَقِيرَ عِلْمُهُ مِنَ العِبَادَاتِ وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ المُعَامَلَاتِ، عَارِفاً بِطَرِيقِ الفُقَرَاءِ فِي تَأْدِيبِ النُّفُوسِ وَتَهْذِيبِ الأَخْلَاقِ وَرَدِّ الخَوَاطِرِ الرَّدِيئَةِ وَعِمَارَةِ القُلُوبِ بِالإِقْبَالِ عَلَى اللهِ، خَارِجاً عَنِ الرِّئَاسَةِ وَرُؤْيَةِ النَّفْسِ وَمُلَاحَظَةِ الأَحْوَالِ، فَذَلِكَ الَّذِي يَصْلُحُ الاقْتِدَاءُ بِهِ لِلسَّالِكِينَ.

فَإِنْ كَانَ فِيهِ بَعْضُ هَذِهِ الخِصَالِ وَهُوَ خَارِجٌ عَنِ الرِّئَاسَةِ صَلُحَ الاقْتِدَاءُ بِهِ لِمَنْ قَصَدَ تِلْكَ الخَصْلَةِ، فَإِنَّا قَدْ رَأَيْنَا الفُقَرَاءَ فِي زَمَانِنَا قَدِ افْتَرَقُوا فِرقاً، فَمِنْهُمْ مَنِ اقْتَصَرَ عَلَى خِدْمَةِ الفُقَرَاءِ وَأَدَاءِ الفَرَائِضِ وَسُلُوكِ طَرِيقِ السَّلَامَةِ، وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لِشَيْءٍ مِنَ الكَلَامِ عَلَى المَقَامَاتِ وَالأَحْوَالِ، فَهَؤُلَاءِ قَنَعُوا مِنَ الطَّرِيقِ بِبَعْضِهِ، فَمَنْ أَحْكَمَ ذَلِكَ البَعْضَ وَسَلِمَ مِنَ الرِّئَاسَةِ صَلُحَ أَنْ يُقْتَدَى بِهِ فِي ذَلِكَ.

وَعَلَى الجُمْلَةِ كُلُّ مَنْ قَصَدَ الرِّئَاسَةَ وَأُعْجِبَ بِرَأْيِهِ لَا يُقْتَدَى بِهِ، وَمَنْ سَلِمَ مِنْهَا وَكَانَ مُسْتَقِيماً فِي دِينِهِ فَهُوَ قُدْوَةٌ فِيمَا عَرَفَهُ مِنَ الخَيْرِ.

فصل

المُصَافَحَةُ سُنَّةٌ عِنْدَ الاجْتِمَاعِ، وَقَدْ وَرَدَتْ فِيهَا أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ، وَطَرِيقُ الفُقَرَاءِ فِي الدُّخُولِ عَلَى المَشَايِخِ أَنْ يُسَلِّمَ أَوَّلًا سَلَاماً جَامِعاً، ثُمَّ يُصَافِحَ الشَّيْخَ، ثُمَّ الَّذِي عَلَى يَمِينِهِ، إِلَى أَنْ يُصَافِحَ الجَمِيعَ، فَإِنْ كَانَ فِي الجَمْعِ مَشَايِخُ بَدَأَ بِشَيْخِهِ أَوَّلًا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ شَيْخُهُ حَاضِراً بَدَأَ بِالمَشْهُورِ مِنْهُمْ.

وَعَلَى الجُمْلَةِ المُصَافَحَةُ المُرَادُ بِهَا صَفَاءُ الصُّدُورِ، فَيَنْبَغِي أَنْ تُعَامَلَ كُلُّ طَائِفَةٍ فِيهَا عَلَى قَدْرِ عَادَتِهِمْ، فَإِنَّهُ أَطْيَبُ لِقُلُوبِهِمْ.

فصل

السُّجُودُ بَيْنَ يَدَيِ المَشَايِخِ وَالفُقَرَاءِ بِدْعَةٌ مُنْكَرَةٌ؛ لِمَا فِيهَا مِنَ التَّشَبُّهِ بِعِبَادَةِ الأَصْنَامِ، وَقَدْ صَحَّ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ إِذَا وُضِعَتْ بَيْنَ

يَدَيْهِ سُتْرَةٌ يُصَلِّي إِلَيْهَا كَالرُّمْحِ وَنَحْوِهِ، لَا يَسْتَقْبِلُهَا بِوَجْهِهِ، وَإِنَّمَا كَانَ ﷺ يَجْعَلُ السُّتْرَةَ عَنْ يَمِينِهِ أَوْ يَسَارِهِ، وَالسُّجُودُ بَيْنَ يَدَيْ الشَّيْخِ مِنَ الغُلُوِّ الـمُفْرِطِ، وَتَرْكُهُ خَيْرٌ.

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**لَا تَجْعَلُوا قَبْرِي وَثَناً يُعْبَدُ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»[1]، فَهَذَا رَسُولُ اللهِ أَشْرَفُ خَلْقِ اللهِ تَعَالَى نَهَى أَنْ يُسْجَدَ لَهُ.

فَإِنْ فَعَلَ ذَلِكَ أَحَدٌ وَقَصَدَ بِهِ تَعْظِيمَ الشَّيْخِ فَهُوَ مُبْتَدِعٌ بِدْعَةً عَظِيمَةً، وَإِنْ قَصَدَ بِهَا سَجْدَةَ شُكْرٍ وَأَتَى عَلَى الشُّرُوطِ الـمُعْتَبَرَةِ شَرْعاً مِنَ الطَّهَارَةِ وَسَتْرِ العَوْرَةِ وَاسْتِقْبَالِ القِبْلَةِ فَهِيَ بِدْعَةٌ لِكَوْنِهِ أَتَى بِهَا فِي غَيْرِ مَحَلِّهَا، وَالفُقَرَاءُ أَحَقُّ النَّاسِ بِاتِّبَاعِ السُّنَّةِ.

وَكَرِهَ «مَالِكٌ» الـمُعَانَقَةَ، وَأَجَازَهَا «سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ».

فصل

الفُقَرَاءُ الصَّادِقُونَ قَصْدُهُمْ فِي السَّفَرِ مُخْتَلِفٌ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُسَافِرُ لِيَكْتَسِبَ عِلْماً أَوْ أَدَباً، وَمِنْهُمْ مَنْ يُسَافِرُ هُرُوباً مِنَ الأُنْسِ بِالنَّاسِ وَالتَّعَلُّقِ بِهِمْ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُسَافِرُ لِفَرَاغِ القَلْبِ مَعَ اللهِ وَطِيبِ الأُنْسِ بِهِ؛ قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿**إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ**﴾ [الليل: ٤]، ﴿**قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ**﴾ [البقرة: ٦٠].

فَأَمَّا مَنْ يُسَافِرُ لِرَاحَةِ نَفْسِهِ مِنَ الاشْتِغَالِ وَالتَّفَرُّجِ فِي البِلَادِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ، كتاب قصر الصلاة في السفر، باب جامع الصلاة.

شَهَوَاتِ النَّفْسِ فَسَفَرُهُ بَاطِلٌ لَا فَائِدَةَ فِيهِ، وَهَذِهِ هِيَ الأَسْفَارُ البَاطِلَةُ.

وَمَنْ سَافَرَ مَعَ شَيْخِهِ كَفَاهُ حُسْنُ الاقْتِدَاءِ بِهِ، وَمَنْ سَافَرَ مَعَ غَيْرِ شَيْخِهِ فَلْيُرَاعِ الزِّيَادَةَ، فَإِنْ وَجَدَ زِيَادَةً فَلْيَغْتَنِمْ الزِّيَارَةَ.

فصل

إِذَا أَذْنَبَ الفَقِيرُ ذَنْباً فَيَنْبَغِي لِلشَّيْخِ أَنْ يَسْتُرَهُ عَنْ غَيْرِهِ وَيَنْصَحَهُ فِي اللهِ بِلَطَافَةٍ عَلَى قَدْرِ حَالِهِ، حَتَّى إِنَّهُ إِنْ أَمْكَنَهُ أَنْ يُعَرِّضَ لَهُ تَعْرِيضاً فَلَا يُصَرِّحُ لَهُ تَصْرِيحاً.

وَلَقَدْ رَأَيْتُ شَيْخاً صَالِحاً كَانَ لَهُ أَصْحَابٌ إِذَا وَقَعَ أَحَدٌ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ مَكْرُوهٍ فَيَقُولُ لِلْجَمَاعَةِ: «إِذَا فَعَلَ الإِنْسَانُ كَذَا وَكَذَا وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَتُوبَ، فَتُوبُوا كُلُّكُمْ. اللهُمَّ إِنَّا تَائِبُونَ إِلَيْكَ مِنْ كَذَا وَكَذَا».

وَرَأَيْتُ شَيْخاً آخَرَ كَانَ إِذَا جَرَى مِنْ صَاحِبٍ لَهُ شَيْئاً يَقُولُ: «إِذَا جَرَى مِنِّي كَذَا وَكَذَا هَلْ يَجِبُ عَلَيَّ التَّوْبَةُ؟» وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ التَّعْرِيضَاتِ، كُلُّ هَذَا مِنَ الفُتُوَّةِ وَمَكَارِمِ الأَخْلَاقِ.

فصل

إِذَا وَرَدَ الفَقِيرُ عَلَى الفُقَرَاءِ فَالأَحْسَنُ أَنْ يُصَافِحَهُمْ كُلَّهُمْ، وَمُصَافَحَتُهُ لِـمَنْ يَعْرِفُهُ أَوْكَدُ وَأَوْلَى، وَمُصَافَحَتُهُ لِـمَنْ لَا يَعْرِفُهُ حَسَنَةٌ، فَإِذَا تَكَرَّرَ دُخُولُهُ وَخُرُوجُهُ عَلَيْهِمْ كَفَاهُ السَّلَامُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ مِنْ غَيْرِ مُصَافَحَةٍ.

وَإِذَا لَقِيَ الفُقَرَاءَ فِي الطَّرِيقِ لَـمْ يَحْتَجْ إِلَى إِذْنٍ فِي السَّلَامِ عَلَيْهِمْ، وَإِنَّمَا السُّنَّةُ أَنْ يُسَلِّمَ عَلَيْهِمْ ابْتِدَاءً، فَإِنْ كَانَ لَا يَعْرِفُهُمْ كَفَاهُ السَّلَامُ، وَإِنْ صَافَحَهُمْ فَحَسَنٌ، وَإِنْ كَانَ يَعْرِفُهُمْ سَلَّمَ عَلَيْهِمْ وَصَافَحَهُمْ ابْتِدَاءً مِنْ غَيْرِ إِذْنٍ، فَإِنَّ الـمَعَارِفَ لَا يَحْصُلُ الوِدَادُ بَيْنَهُمْ إِلَّا بِذَلِكَ.

وَرَأَيْتُ مِنَ الفُقَرَاءِ مَنْ يَسْتَأْذِنُ قَبْلَ السَّلَامِ زِيَادَةً فِي الأَدَبِ، وَلَا بَأْسَ بِهِ، لَكِنَّهُ غَيْرُ سُنَّةٍ.

فصل

فِي ذِكْرِ العَلَائِقِ وَالعَوَائِقِ وَالقَوَاطِعِ وَالصَّوَارِفِ

اعْلَمْ أَنَّ كُلَّ مَنْ قَصَدَ شَيْئاً فَاعْتَرَضَ لَهُ مَا يَمْنَعُهُ عَنْ مَقْصُودِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ الـمَانِعَ يُسَمَّى قَاطِعاً وَعَارِضاً وَصَارِفاً، وَذَلِكَ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الـمَقَاصِدِ، كَالَّذِي يَقْصِدُ الصَّدَقَةَ فَيَعْرِضُ لَهُ خَاطِرُ الشُّحِّ فَيَمْنَعُهُ، أَوْ يَقْصِدُ الحَجَّ فَيَعْرِضُ لَهُ خَاطِرُ خَوْفِ الـمَشَقَّةِ فَيَمْنَعُهُ، أَوْ يَقْصِدُ الجِهَادَ فَيَعْرِضُ لَهُ خَوفث الـمَوْتِ فَيَمْنَعُهُ.

وَمُصْطَلَحُ الفُقَرَاءِ أَنَّ العَلَائِقَ وَالعَوَائِقَ: كُلُّ شَيْءٍ تَعَلَّقَ بِهِ القَلْبُ وَاشْتَغَلَ بِهِ عَنْ مَقْصُودِهِ، وَلَيْسَ لِلْفُقَرَاءِ الـمُحَقِّقِينَ مَقْصُودٌ سِوَى التَّوَجُّهُ إِلَى اللهِ وَالإِقْبَالُ عَلَيْهِ وَالاشْتِغَالُ بِهِ، فَكُلُّ مَا قَطَعَهُمْ عَنْ هَذَا فَهُوَ القَاطِعُ.

وَأَحْوَالُ النَّاسِ تَخْتَلِفُ، فَوَاحِدٌ يَقْطَعُهُ الاهْتِمَامُ بِالرِّزْقِ، وَهُوَ أَكْبَرُ القَوَاطِعِ، وَآخَرُ تَقْطَعُهُ مَحَبَّةُ مَخْلُوقٍ، وَآخَرُ تَقْطَعُهُ مُلَاحَظَةُ عِلْمِهِ أَوْ رُؤْيَةُ نَفْسِهِ

أَوْ حُبُّ الرِّئَاسَةِ أَوِ الأُنْسُ بِمَعَارِفِهِ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا لَا يُحْصَى، فَإِنْ مَنَعَهُ ذَلِكَ عَنْ أَصْلِ طَلَبِهِ سُمِّيَ عِلَاقَةً وَعَائِقاً، وَإِنْ عَرَضَ لَهُ فِي طَرِيقٍ مَا يَمْنَعُهُ بَعْدَ أَنْ دَخَلَ فِي الطَّرِيقِ وَنَالَ مِنْهَا شَيْئاً فَمَنَعَهُ عَنِ الوُصُولِ يُسَمَّى قَاطِعاً وَصَارِفاً وَعَارِضاً.

مِثَالُ ذَلِكَ رَجُلٌ أَرَادَ سَفَرَ الحَجِّ فَمَنَعَتْهُ النَّفَقَةُ عَلَى عِيَالِهِ وَالخَوْفُ مِنْ ضُعْفِ حَالِهِ، فَتَرَكَ السَّفَرَ خَوْفاً مِنْ ذَلِكَ، فَهَذَا مَنَعَهُ العَلَائِقُ وَالعَوَائِقُ، وَآخَرُ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ عَلَائِقُ وَلَا عَوَائِقُ فَسَافَرَ حَتَّى وَصَلَ إِلَى العَقَبَةِ أَوْ الحَوْرَاءِ أَوْ غَيْرِهَا فَعَرَضَتْ لَهُ قُطَّاعُ الطَّرِيقِ فَصَدُّوهُ عَنْ مَكَّةَ فَهَذَا مَنَعَتْهُ القَوَاطِعُ وَالعَوَارِضُ وَالصَّوَارِفُ، فَالأَوَّلُ مَمْنُوعٌ قَبْلَ سَفَرِهِ، وَالثَّانِي مَمْنُوعٌ فِي وَسَطِ سَفَرِهِ.

وَلَابُدَّ مِنْ تَنْبِيهٍ عَلَى مَغْلَطَةٍ عَظِيمَةٍ يَغْلِطُ فِيهَا النَّاسُ، وَذَلِكَ أَنَّ مِنَ الجُهَّالِ مَنْ يُرِيدُ سُلُوكَ الطَّرِيقِ فَيُطَلِّقُ زَوْجَتَهُ وَيَهْرُبُ عَنْ أَوْلَادِهِ وَيَتْرُكُ جَمِيعَ أَسْبَابِهِ، وَيَقُولُ: «قَطَعْتُ العَلَائِقَ وَتَرَكْتُ العَوَائِقَ»، فَإِذَا تَجَرَّدَ وَانْقَطَعَ بِظَاهِرِهِ بَقِيَ مُنْقَطِعاً بِالظَّاهِرِ مُتَعَلِّقاً بِالبَاطِنِ، يَجْلِسُ فِي المَسَاجِدِ وَهِمَّتُهُ تَجُولُ فِي الأَسْوَاقِ وَفِكْرُهُ مُشْتَغِلٌ بِالأَرْزَاقِ وَالأُنْسِ بِالرِّفَاقِ، فَهُوَ كَمَا قِيلَ فِي الأَمْثَالِ: «هَرَبَ مِنَ المَطَرِ وَوَقَفَ تَحْتَ المِيزَابِ»، وَهَذَا عَيْنُ الحَمَاقَةِ.

وَإِنَّمَا التَّجْرِيدُ أَنْ تُكْرِمَ زَوْجَتَكَ وَأَوْلَادَكَ وَأَصْحَابَكَ، وَتُلَازِمَ مَعَايِشَكَ وَاكْتِسَابَكَ، وَتَجْعَلَ اجْتِهَادَكَ فِي قَطْعِ العَلَائِقِ البَاطِنَةِ، وَتَشْتَغِلَ بِسِرِّكَ، وَتُقْبِلَ عَلَى رَبِّكَ، فَتَبْقَى مَعَ النَّاسِ فِي الظَّاهِرِ وَأَنْتَ مَعَ اللهِ فِي البَاطِنِ، فَهَذَا قَطْعُ العَلَائِقِ عَلَى الحَقِيقَةِ.

فصل

المُتَجَرِّدُ: مَنْ جَرَّدَ لِسَانَهُ عَنِ اللَّغْوِ فَلَا يَنْطِقُ بِمَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ لِدِينِهِ أَوْ دُنْيَاهُ، وَجَرَّدَ نَفْسَهُ عَنِ اللَّهْوِ فَلَا يَشْتَغِلُ بِعَبَثٍ وَلَا لَعِبٍ وَلَا شَيْءٍ مِمَّا يُسْتَغْنَى عَنْهُ، وَجَرَّدَ قَلْبَهُ عَنِ السَّهْوِ فَيُرَاعِي قَلْبَهُ مَعَ اللهِ تَعَالَى، فَهَذَا الَّذِي يَصْلُحُ لَهُ التَّجْرِيدُ، وَأَمَّا مَنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَاشْتِغَالُهُ بِالأَسْبَابِ أَوْلَى.

وَلَا خِلَافَ أَنَّ الـمُتَسَبِّبَ بِقَدْرِ كِفَايَتِهِ يَسْتَغْنِي عَنِ النَّاسِ وَيَقُومُ عَلَى عِيَالِهِ وَعَلَى مَنْ يَرِدُ عَلَيْهِ مِنْ إِخْوَانِهِ أَفْضَلُ مِنَ الَّذِي يَسْأَلُ النَّاسَ، وَقَدْ وَرَدَتْ آيَاتٌ وَأَحَادِيثُ فِي هَذَا الـمَعْنَى يَطُولُ ذِكْرُهَا، وَيَكْفِي الحَدِيثُ: «**اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى**»(١) وَهِيَ السَّائِلَةُ.

فصل

صِفَةُ الشَّيْخِ الَّذِي يُقْتَدَى بِهِ أَنْ يَكُونَ عَالِـماً بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ عِلْمُهُ، خَالِياً مِنْ طَلَبِ الرِّئَاسَةِ، يَرَى مِنَّةَ اللهِ عَلَيْهِ فِيمَا يَفْتَحُ عَلَيْهِ بِهِ، فَإِنِ انْتَفَعَ أَحَدٌ بِسَبَبِهِ رَآهُ فَضْلًا مِنَ اللهِ، وَإِنْ وَجَدَ مَنْ لَا يَنْتَفِعُ بِهِ اتَّهَمَ نَفْسَهُ بِعَدَمِ الصِّدْقِ، فَهُوَ عَلَى الدَّوَامِ يَرَى فَضْلَ اللهِ وَيَرَى تَقْصِيرَهُ، فَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا أَفْضَلُ مِـمَّنْ اشْتَغَلَ بِنَفْسِهِ.

وَأَمَّا مَنْ تَصَدَّرَ لِلْمَشْيَخَةِ وَهُوَ يُلَاحِظُ أَعْمَالَهُ وَيَسْتَحْسِنُ أَقْوَالَهُ فَإِنِ انْتَفَعَ أَحَدٌ بِسَبَبِهِ رَأَى أَنَّهُ مِنْ بَرَكَاتِهِ وَأَنْفَاسِهِ وَهِمَّتِهِ، وَإِنْ لَـمْ يَنْتَفِعْ أَحَدٌ بِسَبَبِهِ مَقَتَهُ وَرَأَى أَنَّهُ مَحْجُوبٌ عَنْ رُؤْيَةِ أَنْوارِهِ، فَإِنَّ هَذَا مَغْرُورٌ مَخْذُولٌ مَفْتُونٌ، يُرِيدُ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى.



الزِّيَادَةَ فَيَقَعُ فِي النَّقْصِ.

وَأَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ: الجَاهِلُ يَتَصَدَّرُ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَإِذَا وَقَعَ لَهُ شَيْءٌ يَتَكَبَّرُ أَنْ يَسْأَلَ العُلَمَاءَ.

وَأَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ: قَوْمٌ يَقُولُونَ لِأَصْحَابِهِمْ: «العِلْمُ حِجَابٌ، وَالعُلَمَاءُ مَحْجُوبُونَ، وَعِلْمُ العُلَمَاءِ قُشُورٌ»، فَهَذَا كُلُّهُ جَهْلٌ يُوقِعُ فِي النَّقْصِ العَظِيمِ.

فصل

القُرْآنُ العَظِيمُ شَاهِدٌ بِفَضِيلَةِ الإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ وَذَمِّ الإِسَاءَةِ إِلَيْهِمْ، وَلَوْ قَصَدَ النَّاسُ جَمْعَ مَا فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ ذَلِكَ لَمْ يُحْصُوهُ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأحزاب: ٥٧] يَعْنِي: أَوْلِيَاءَ اللهِ.

وَقَدْ وَرَدَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧] أَنَّ الظُّلْمَ هُنَا الشِّرْكُ، وَأَنَّ كُلَّ أُمَّةٍ أَشْرَكَتْ بِاللهِ لَمْ يُهْلِكْهُمُ اللهُ بِشِرْكِهِمْ مَا دَامُوا مُصْلِحِينَ بَيْنَهُمْ، فَإِذَا فَسَدَ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَغَى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ أُهْلِكُوا بِبَغْيِهِمْ.

وَيُقَالُ: «أَرْبَعُ خِصَالٍ مَحْمُودَةٍ فِي جَمِيعِ الأَدْيَانِ وَجَمِيعِ البُلْدَانِ وَجَمِيعِ الأَزْمَانِ: الصِّدْقُ، وَالأَمَانَةُ، وَالعِلْمُ، وَالإِحْسَانُ»، مَعْنَاهُ أَنَّهُ لَمْ يَخْتَلِفْ أَحَدٌ أَنَّ الصِّدْقَ خَيْرٌ مِنَ الكَذِبِ، وَالأَمَانَةَ خَيْرٌ مِنَ الخِيَانَةِ، وَالعِلْمَ خَيْرٌ مِنَ الجَهْلِ، وَالإِحْسَانَ خَيْرٌ مِنَ الإِسَاءَةِ.

فَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ الإِحْسَانَ إِلَى الخَلْقِ طَاعَةٌ عَظِيمَةٌ، وَأَنَّ الإِسَاءَةَ إِلَيْهِمْ



مَعْصِيَةٌ كَبِيرَةٌ، فَأَحَقُّ النَّاسِ بِالإِحْسَانِ: الـمُؤْمِنُونَ، وَأَحَقُّ الـمُؤْمِنِينَ بِالإِحْسَانِ: الصَّالِحُونَ، وَأَحَقُّ الصَّالِحِينَ بِالإحْسَانِ: مَنْ نَفَعَكَ اللهُ بِصُحْبَتِهِ وَنَصَرَكَ بِبَرَكَتِهِ وَفَتَحَ سَمْعَ قَلْبِكَ وَأَزَالَ حُجُبَ نَفْسِكَ وَأَضَاءَ لَكَ الطَّرِيقَ بِالاقْتِدَاءِ بِهِ، فَالشَّيْخُ وَالِدٌ لِمَعَانِي قَلْبِكَ، كَمَا أَنَّ أَبَاكَ وَالِدٌ لِمَعَانِي صُورَتِكَ، وَفَضِيلَةُ الإِنْسَانِ بِجَمَالِ مَعَانِي قَلْبِهِ أَكْبَرُ مِنْ فَضِيلَتِهِ بِجَمَالِ صُورَتِهِ، فَتَأَمَّلْ ذَلِكَ تَعْرِفْ حُرْمَةَ الشَّيْخِ وَالأُسْتَاذِ الـمُعَلِّمِ، وَالشَّيْخُ يُرَبِّي نَفْسَكَ وَقَلْبَكَ، وَالوَالِدُ يُرَبِّي جِسْمَكَ، وَالشَّيْخُ يَحْفَظُ دِينَكَ، وَالوَالِدُ يَحْفَظُ دُنْيَاكَ.

فصل

وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطَبَ فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ وَقَالَ: «**إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا**»(١) الحَدِيثُ إِلَى آخِرِهِ، فَإِذَا تَعَدَّى أَحَدٌ عَلَى مُسْلِمٍ وَجَبَ عَلَى مَنْ يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِهِ أَنْ يَدْفَعَهُ عَنْهُ.

وَقَدْ وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَـمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَـمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ**»(٢).

وَحَمْلُ السِّلَاحِ لِرَدِّ الأَعْدَاءِ مِنَ الكُفَّارِ وَأَهْلِ البَغْيِ مِنَ الـمُسْلِمِينَ سُنَّةٌ جَارِيَةٌ لَـمْ يَزَلْ عَلَيْهَا الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ، فَمَنْ أَنْكَرَهَا فَقَدْ أَنْكَرَ السُّنَّةَ، وَإِنِ ادَّعَى مُدَّعٍ أَنَّ هِمَّتَهُ كَافِيَةٌ فَهُوَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ: إِمَّا أَنْ يَكُونَ كَاذِباً فَيَكْفِيهِ كَذِبُهُ، وَإِنْ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب حجة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان.

كَانَ صَادِقاً فَهُوَ صَاحِبُ دَعْوَى خَارِجَةٍ عَنِ السُّنَّةِ، وَكَيْفَ لَا يَنْظُرُ هَذَا الـمُدَّعِي أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَكْبَرُ النَّاسِ هِمَّةً وَقَدْ كَانَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ يَحْمِلُونَ السِّلَاحَ وَلَا يَأْمَنُونَ أَهْلَ البَغْيِ؟!

وَأَحْسَنُ أَحْوَالِ صَاحِبِ الـهِمَّةِ أَنْ يَسْلُكَ ظَاهِرَ الشَّرِيعَةِ، وَيَسْتُرَ الحَالَ مَعَ اللهِ فِي الحَقِيقَةِ، فَيَحْمِلُ الزَّادَ وَهُوَ مُتَوَكِّلٌ، وَيُخَالِطُ النَّاسَ وَهُوَ مُتَجَرِّدٌ، وَيَتَسَبَّبُ وَهُوَ وَاثِقٌ بِاللهِ تَعَالَى.

وَعَلَى الجُمْلَةِ فَالأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَحَامِلُ السِّلَاحِ يُعْتَبَرُ قَصْدُهُ فِي حَمْلِهِ، وَالإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ.

فصل

سُنَّةُ اللهِ تَعَالَى فِيمَنْ قَالَ: «أَنَا لَا أَحْتَاجُ إِلَى شَيْخٍ، وَيَكْفِينِي الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ» لَا يَخْلُو مِنْ أَمْرَيْنِ: إِمَّا أَنْ يَكُونَ عَارِفاً بِمَا يَلْزَمُهُ، أَوْ لَا، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَارِفاً بِمَا يَلْزَمُهُ فَشَيْخُهُ الشَّيْطَانُ يَلْعَبُ بِهِ كَيْفَ شَاءَ، وَإِنْ كَانَ عَارِفاً بِمَا يَلْزَمُهُ فَهُوَ جَاحِدٌ لِنِعْمَةِ الصُّحْبَةِ، فَإِنَّهُ لَابُدَّ لَهُ مِنْ مُعَلِّمٍ يُعَلِّمُهُ أَوْ يُأَدِّبُهُ، وَقَدْ جَحَدَ الوَاسِطَةَ، وَجُحُودُهَا كَذِبٌ وَجَهْلٌ.

وَإِنْ قَالَ: «شَيْخِي فُلَانٌ» يَعْنِي بِهِ مِنَ الـمُتَقَدِّمِينَ، كَانَ كَاذِباً؛ لِأَنَّهُ لَا وُصْلَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَإِنَّمَا شَيْخُ الإِنْسَانِ: مَنْ يَصْحَبُهُ، وَذِكْرُ الفُقَرَاءِ لِـمَشَايِخِهِمْ المَاضِينَ عَلَى سَبِيلِ الأَدَبِ لَا غَيْرَ، وَإِنَّمَا شَيْخُ الإِنْسَانِ فِي الحَقِيقَةِ: مَنْ صَحِبَهُ.

وَالمَجْذُوبُ: هُوَ الَّذِي يَعْلَمُ أُمُورَ دِينِهِ، وَتَوَجَّهَ إِلَى اللهِ تَعَالَى بِنُورِ قَلْبِهِ،

وَفُتِحَ عَلَيْهِ، فَهُوَ كَمَنْ طَارَ فِي الـهَوَاءِ فَوَصَلَ إِلَى مَكَّةَ فِي لَيْلَةٍ وَحَجَّ فَحَجُّهُ صَحِيحٌ، لَكِنْ لَا يَصْلُحُ دَلِيلًا لِلرَّكْبِ إِلَّا مَنْ قَطَعَ الـمَنَازِلَ وَعَرَفَ الـمَنَاهِلَ وَرَتَّبَتْهُ وَهَذَّبَتْهُ الأَحْكَامُ، وَعَرَفَ الآدَابَ عِلْماً وَسُلُوكاً، فَذَلِكَ الَّذِي يَصْلُحُ لِلاقْتِدَاءِ بِهِ، وَمَا دَامَ لَمْ يَبْرَئْ لَا يَنْتَصِبُ طَبِيباً، فَإِنْ عَافَاهُ اللهُ تَعَالَى وَنَصَّبَهُ طَبِيباً فَرَأَى فَضْلَ اللهِ عَلَيْهِ وَعَلَى مَنْ يَصْحَبُهُ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ وَاقِفُونَ عَلَى بَابِ الـمَوْلَى يَرْجُونَ كَرَمَهُ، وَلَـمْ يَرَ فَضْلَ نَفْسِهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِ اللهِ، فَذَلِكَ الَّذِي هُوَ دَلِيلٌ مِنْ أَدِلَّةِ الطَّرِيقِ إِلَى اللهِ، نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُلْهِمَنَا رُشْدَهُ.

وَهَذَا مَا حَضَرَ عِنْدِي مِنَ الجَوَابِ، وَاللهُ الـمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ، وَالحَمْدُ لِـلَّهِ وَحْدَهُ، وَصَلَوَاتُهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ بَعْدَهُ.

تَمَّ كِتَابُ «**أَنْوَارِ المَعَارِفِ وَأَسْرَارِ العَوَارِفِ**» مِمَّا صَنَّفَهُ عَبْدُ العَزِيزِ بْنُ أَحْمَدٍ بْنُ سَعِيدٍ الدَّمِيرِي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَعَنْ وَالِدَيْهِ وَعَنْ جَمِيعِ المُسْلِمِينَ.

وكان الفراغ من نسخه يوم الأربعاء يوم خمس وعشرين من صفر سنة تسع وثمانين ومئة وألف (١٠٨٩ هـ) وحسبنا ونعم الوكيل، من نسختها يوم الثامن والعشرين من شهر ذي الحجة الحرام سنة أربع وأربعين وثمانمئة (٨٤٤هـ)

كَتَبْـتُ وَقَـدْ أَيْقَنْـتُ يَـوْمَ كَتَبْتُـهُ ... بِـأَنَّ يَـدِي تَفْنَـى وَيَبْقَـى كِتَابُهَـا
فَيَـا قَـارِئَ الخَـطِّ الَّـذِي قَـدْ كَتَبْتُـهُ ... تَفَكَّـرْ فِـي يَـدِي وَمَـا قَـدْ أَصَـابَهَا
فَـإِنْ عَمِلَـتْ خَيْـراً تُجَـازَى بِفِعْلِهَـا ... وَإِنْ عَمِلَـتْ سُـوءاً تَطَـاوَلَ حِسَـابُهَا

هذا ما وجدت، والحمد لله رب العالمين.

